اَلْمَزْمُورُ الْحَادِي وَالسَّبْعُونَ

1بِكَ يَا رَبُّ احْتَمَيْتُ فَلاَ أَخْزَى إِلَى الدَّهْرِ. 2بِعَدْلِكَ نَجِّنِي وَأَنْقِذْنِي. أَمِلْ إِلَيَّ أُذُنَكَ وَخَلِّصْنِي. 3كُنْ لِي صَخْرَةَ مَلْجَأٍ أَدْخُلُهُ دَائِماً. أَمَرْتَ بِخَلاَصِي، لأَنَّكَ صَخْرَتِي وَحِصْنِي. 4يَا إِلهِي نَجِّنِي مِنْ يَدِ الشِّرِّيرِ، مِنْ كَفِّ فَاعِلِ الشَّرِّ وَالظَّالِمِ، 5لأَنَّكَ أَنْتَ رَجَائِي يَا سَيِّدِي. الرَّبَّ مُتَّكَلِي مُنْذُ صِبَايَ. 6عَلَيْكَ اسْتَنَدْتُ مِنَ الْبَطْنِ، وَأَنْتَ مُخْرِجِي مِنْ أَحْشَاءِ أُمِّي. بِكَ تَسْبِيحِي دَائِماً. 7صِرْتُ كَآيَةٍ لِكَثِيرِينَ، أَمَّا أَنْتَ فَمَلْجَإِي الْقَوِيُّ. 8يَمْتَلِئُ فَمِي مِنْ تَسْبِيحِكَ، الْيَوْمَ كُلَّهُ مِنْ مَجْدِكَ.

9لاَ تَرْفُضْنِي فِي زَمَنِ الشَّيْخُوخَةِ. لاَ تَتْرُكْنِي عِنْدَ فَنَاءِ قُوَّتِي. 10لأَنَّ أَعْدَائِي تَقَاوَلُوا عَلَيَّ، وَالَّذِينَ يَرْصُدُونَ نَفْسِي تَآمَرُوا مَعاً 11قَائِلِينَ: «إِنَّ اللهَ قَدْ تَرَكَهُ. الْحَقُوهُ وَأَمْسِكُوهُ، لأَنَّهُ لاَ مُنْقِذَ لَهُ». 12يَا اللهُ لاَ تَبْعُدْ عَنِّي. يَا إِلهِي إِلَى مَعُونَتِي أَسْرِعْ. 13لِيَخْزَ وَيَفْنَ مُخَاصِمُو نَفْسِي. لِيَلْبَسِ الْعَارَ وَالْخَجَلَ الْمُلْتَمِسُونَ لِي شَرّاً. 14أَمَّا أَنَا فَأَرْجُو دَائِماً، وَأَزِيدُ عَلَى كُلِّ تَسْبِيحِكَ. 15فَمِي يُحَدِّثُ بِعَدْلِكَ، الْيَوْمَ كُلَّهُ بِخَلاَصِكَ، لأَنِّي لاَ أَعْرِفُ لَهَا أَعْدَاداً. 16آتِي بِجَبَرُوتِ السَّيِّدِ الرَّبِّ. أَذْكُرُ بِرَّكَ وَحْدَكَ.

17اَللهُمَّ، قَدْ عَلَّمْتَنِي مُنْذُ صِبَايَ، وَإِلَى الآنَ أُخْبِرُ بِعَجَائِبِكَ، 18وَأَيْضاً إِلَى الشَّيْخُوخَةِ وَالشَّيْبِ يَا اللهُ لاَ تَتْرُكْنِي، حَتَّى أُخْبِرَ بِذِرَاعِكَ الْجِيلَ الْمُقْبِلَ، وَبِقُوَّتِكَ كُلَّ آتٍ. 19وَبِرُّكَ إِلَى الْعُلْيَاءِ يَا اللهُ الَّذِي صَنَعْتَ الْعَظَائِمَ. يَا اللهُ مَنْ مِثْلُكَ! 20أَنْتَ الَّذِي أَرَيْتَنَا ضِيقَاتٍ كَثِيرَةً وَرَدِيئَةً، تَعُودُ فَتُحْيِينَا، وَمِنْ أَعْمَاقِ الأَرْضِ تَعُودُ فَتُصْعِدُنَا. 21تَزِيدُ عَظَمَتِي، وَتَرْجِعُ فَتُعَزِّينِي. 22فَأَنَا أَيْضاً أَحْمَدُكَ بِرَبَابٍ حَقَّكَ يَا إِلَهِي. أُرَنِّمُ لَكَ بِالْعُودِ يَا قُدُّوسَ إِسْرَائِيلَ. 23تَبْتَهِجُ شَفَتَايَ إِذْ أُرَنِّمُ لَكَ وَنَفْسِي الَّتِي فَدَيْتَهَا 24وَلِسَانِي أَيْضاً الْيَوْمَ كُلَّهُ يَلْهَجُ بِبِرِّكَ. لأَنَّهُ قَدْ خَزِيَ لأَنَّهُ قَدْ خَجِلَ الْمُلْتَمِسُونَ لِي شَرّاً.

شهادة شيخ تقي

يعبِّر هذا المزمور عن مشاعر شيخ تقي يشهد لاختباراته الماضية، ويتذكر معاملات الله معه. إنه يعترف بضعفاته ويسترجع التجارب التي مرَّ بها، لكنه لا ينسى العطايا والمواهب الطبيعية وفوق الطبيعية التي منحها الرب له. وإذ يذكر الماضي يمتلئ قلبه بالأمل في المستقبل.

هذا المزمور تذكرةٌ للشيوخ ليرنِّموا مع صاحبه ترنيمة شهادة عن ماضيهم مع الرب، كما يُلهِم الشباب ليعرفوا ما يمكن أن يقولوه عندما يتقدَّم بهم العمر. إنه مزمور الجميع، من شباب وشيوخ. وكثيراً ما يقرأ رعاة الكنائس هذا المزمور للمرضى أثناء زيارتهم لهم.

في هذا المزمور نجد:

أولاً – ثقة الشيخ التقي (آيات 1–4)

ثانياً – ذكريات الشيخ التقي (آيات 5–8)

ثالثاً – متاعب الشيخ التقي (آيات 9–13)

رابعاً – انتصار الشيخ التقي (آيات 14–24)

أولاً ـ ثقة الشيخ التقي

(آيات 1-4)

الآيات الثلاث الأولى من هذا المزمور مقتبسة من مطلع المزمور الحادي والثلاثين. الأغلب أن كلمات داود في مز 31 كانت الترنيمة المفضَّلة عند كاتب مزمورنا، الشيخ التقي، منذ مطلع حياته، فبدأ بها معلناً ثقته في الرب في آيتي 1، 3، ولذلك يطلب من الرب في آيتي 2، 4.

1 ـ طمأنينة الشيخ التقي: «بك يا رب احتميتُ فلا أخزى إلى الدهر.. كُن لي صخرة ملجإ أدخله دائماً. أمرتَ بخلاصي لأنك صخرتي وحصني» (آيتا 1، 3). هذا إعلان الثقة في الرب وفي حمايته، فلا يخزى إلى الدهر، كما قال الرسول بولس: «حسب انتظاري ورجائي أني لا أُخزى في شيء» (في 1: 20). إنه يثبت في الله فلا يتزعزع، ويختبئ في ستره كما كان داود يختبئ في الكهف من مطاردة شاول. ويعلن المرنم أن الله صخرة ملجإ دائم له، وأمر بخلاصه ووعد بنجاته. لقد أمر أن يكون نور فكان نور، وعندما يأمر بالخلاص يأتي الخلاص. إنه دائم الوجود مع عبده، فيركض إليه الصديق ويتمنَّع (أم 18: 10). إنه رب الطبيعة يأمرها لتخدم عبيده، وهو رب العناية يكلفها لتعمل لخيرهم، وهو رب الملائكة يوجِّههم ليحرسوهم.

وهناك صلة خاصة شخصية بين المرنم وبين الله، فيخاطبه بلهجة اليقين: «لأنك صخرتي وحصني». وحصن الرب مُحكم الغلق في وجه كل المهاجمين، ولو أن له كوَّة مفتوحة دوماً لترتفع منها الصلاة إلى السماء كالبَخور العطر.

2 ـ طلبة الشيخ التقي: «بعدلك نجِّني وأَنقذني. أَمِل إليَّ أذنك وخلِّصني.. يا إلهي نجِّني من يد الشرير، من كفِّ فاعل الشر والظالم» (آيتا 2، 4). يطلب من الرب أن ينقذه من الشرير الظالم، لأنه الإله العادل الذي يعطي كل صاحب حق حقَّه، ويجازي بعدلٍ كل واحد حسب أعماله. ويطلب أن يمنحه طمأنينة القُرب منه، قائلاً: «أَمِل إليَّ أذنك» لا لأن الرب بعيد، لكن ليطمئن قلبه.

ولنا في طلبة الشيخ التقي درسان:

(أ) الصلاة الحقيقية هي صلاة الإيمان: فالذي يأتي إلى الله يجب أن يؤمن أنه موجود وأنه يجازي الذين يطلبونه (عب 11: 6). فليطلب المؤمن «من الله الذي يعطي الجميع بسخاء ولا يعيِّر، فسيُعطى له. ولكن ليطلب بإيمان غير مرتاب البتة، لأن المرتاب يشبه موجاً من البحر تخبطه الريح وتدفعه، فلا يظن ذلك الإنسان أنه ينال شيئاً من عند الرب» (يع 1: 5-7).

(ب) الصلاة الحقيقية هي الصلاة التي تنتظر الاستجابة: لأن الصارخ يدرك أن أباه السماوي يهب خيرات للذين يسألونه (مت 7: 11) فهو سامع الصلاة الذي يأتي إليه كل بشر (مز 65: 2). أنت إذاً تكلم من تثق أنه يستمع لك، ويقدر أن يقدم لك العون، والحكيم في تقديم النُّصح، لأنه العجيب، المشير، الإله القدير (إش 9: 6).

ثانياً ـ ذكريات الشيخ التقي

(آيات 5-8)

أورد المرنم ثلاث ذكريات، أتبعها بكلمات الشكر والتسبيح:

1 - ذكَر أيام الصبا: «لأنك أنت رجائي يا سيدي الرب، مُتَّكلي منذ صباي» (آية 5). ما أجمل أن نعود بالذاكرة إلى تعاملات الله معنا، فنقول: «الرب راعيَّ فلا يعوزني شيء» (مز 23: 1) كما قال يعقوب لابنه يوسف في أواخر أيامه: «الله الذي سار أمامه أبواي إبراهيم وإسحاق. الله الذي رعاني منذ وجودي إلى هذا اليوم» (تك 48: 15). اختبر المرنم زمن شبابه عناية إلهه الصالح به إذ حفظه من ساعة التجربة، وكأنه يقول له: «لأنك حفظت كلمة صبري، أنا أيضاً سأحفظك من ساعة التجربة العتيدة أن تأتي على العالم كله لتجرِّب الساكنين على الأرض» (رؤ 3: 10) وأقام على صخرة رجليه وثبَّت خطواته (مز 40: 2). وحتى عندما سقط لم ينطرح، لأن الرب أسند يده (مز 37: 24). حفظ الله داود من جليات ومن شاول، وعمل به أعمالاً بطولية، وسيحفظه في شيخوخته من كل خطر، ويعمل به أعمالاً أعظم.

2 - ذكَر كيف أبداه: «عليك استندتُ من البطن، وأنت مُخرِجي من أحشاء أمي. بك تسبيحي دائماً» (آية 6). «نسجتَني في بطن أمي.. رأت عيناك أعضائي، وفي سِفرك كلها كُتِبت يوم تصوَّرَتْ، إذ لم يكن واحدٌ منها» (مز 139: 13، 16). من قبل أن يشعر المرنم بوجوده، وهو بعد جنين، وبعد ولادته قبل أن يقوى على عمل شيء، أحياه الله وأسنده، كما قال لإرميا: «قبلما صوَّرتُك في البطن عرفتُك، وقبلما خرجتَ من الرحم قدَّستُك» (إر 1: 5) وكما قال لشعبه: «اسمعوا لي يا بيت يعقوب.. المحمَّلين عليَّ من البطن، المحمولين من الرَّحم. وإلى الشيخوخة أنا هو، وإلى الشَّيْبة أنا أحمل. قد فعلتُ وأنا أرفع وأنا أحمل وأنجّي» (إش 46: 3، 4).

3 - ذكَر كيف كان في آلامه وتجاربه «كآيةٍ لكثيرين»: «صرتُ كآية لكثيرين. أما أنت فملجإي القوي. يمتلئ فمي من تسبيحك. اليوم كله من مجدك» (آيتا 7، 8). رأوه في بلاياه وظنوا أن إلهه تركه، لكن البلايا زادته تمسُّكاً بإلهه، وبقي الله ملجأه القوي. لقد جاز اختبار المسيا المتألم فاندهش منه كثيرون بسبب ما حلّ به (إش 52: 14). ولكن النصرة الإلهية كانت من نصيبه.

كان الله مع الشيخ التقي منذ كان جنيناً، وحمله بحب واقتدار في صباه، وكان له الملجأ القوي في المصاعب، حتى اندهش أصدقاؤه وأعداؤه على السواء. لذلك امتلأ فم الشيخ التقي من تسبيح الله، وكان اليوم كله يتأمل عمل إله المجد السماوي معه بالشكر والحمد والتمجيد.

ثالثاً - متاعب الشيخ التقي

(آيات 9-13)

يذكر الشيخ التقي نوعين من المتاعب التي جازها، وكيف انتصر بالصلاة عليهما:

1 - متاعب الضعف الجسدي: «لا ترفُضني في زمن الشيخوخة. لا تتركني عند فناء قوتي» (آية 9). وهذه مشكلة كل شيخ تقدَّمت به الأيام، يوضحها الجامعة 12: 1-8 في قصيدة بليغة تصوِّر لنا الشيخوخة بالاستعارات، يصف فيها الكاتب السنين التي ليس للإنسان فيها سرور، إذ «تُظلم الشمس والنور والقمر والنجوم» بمعنى انتهاء السرور لقدوم الموت، و«ترجع السحب بعد المطر» وقد تساقط كل ما فيها من خير. في الشيخوخة تتزعزع

الذراعان وهما «حفظة البيت» والقدمان وهما «رجال القوة»، والأسنان وهي «الطواحن» وتظلم العينان وهي «النواظر» وتنغلق الآذان والعيون وهي «الأبواب» التي يدخل منها الصوت والضوء، وينخفض صوت الأسنان وهي «المطحنة»، ويقل النوم ويخف فيستيقظ الإنسان على صوت عصفور! ولا يتلذَّذ الشيخ لصوت الغناء، وبالنسبة له «تُحَطُّ كل بنات الغناء». و«يخاف من العالي» إذ تضعف ساقاه فلا يقوى على التسلق والصعود للأدوار العليا. و«يُزهر اللوز» بمعنى أن شعر رأسه يبيضّ، و«الجندب يُستثقل» فتكون الحشرة الشبيهة بالجرادة ثقيلة إذا حاول أن يحملها! وتنتهي الشهية للطعام «الشهوة تَبْطُل لأن الإنسان ذاهبٌ إلى بيته الأبدي». وعندما يموت يتبع النادبون النعش، لأنه قد انقطع الأنبوب الفضي الذي يوصل زيت الزيتون الذهبي إلى شُعب المنارة، وانكسر كوز الزيت الذهبي الذي كانت المنارة تتغذى منه. لقد انكسرت الجرَّة وانقصفت البَكَرة، وسقط الحبل والدلو معاً في البئر، فرجع التراب إلى الأرض كما كان، ورجعت الروح إلى الله الذي أعطاها.

لم يرفض الله أحبّاءه زمن شيخوختهم وفناء قوّتهم، فقد قيل عن موسى: «كان ابن مئة وعشرين سنة حين مات، ولم تكلّ عينه ولا ذهبت نضارته» (تث 34: 7) وقال كالب: «أنا اليوم ابن خمس وثمانين سنة، فلم أزل اليوم متشدِّداً كما في يوم أرسلني موسى. كما كانت قوتي حينئذ هكذا قوتي الآن للحرب وللخروج وللدخول» (يش 14: 10، 11). صدق القول الكريم: «أما منتظرو الرب فيجدِّدون قوةً، يرفعون أجنحة كالنسور، يركضون ولا يتعبون، يمشون ولا يُعيون» (إش 40: 31).

2 - متاعب من البشر حوله: (آيتا 10، 11). هناك من يفرحون وهم يرون غيرهم يتعبون. وقد أخذ أعداء الشيخ التقي يرصدون أحواله وخطواته، وتقوَّلوا عليه بكل كلام سيء. ولما سمعوا بمتاعبه الصحية وبلاياه ظنوا أن الله تركه ولم يعُد له منقذاً، فقرروا أن يَلحقوا به ويُؤذوه في شخصه وماله، وولده. إنهم يذكِّروننا بربشاقَى، قائد الجيش الأشوري، الذي جاء ليغزو مملكة يهوذا، وأرسل للملك حزقيا يقول: «هل بدون الرب صعدتُ إلى هذه الأرض لأُخربها؟ الرب قال لي: اصعد إلى هذه الأرض وأخرِبها» (إش 36: 10). وربشاقى كاذبٌ في كل ما قال. ولم يكن أمام حزقيا إلا اللجوء إلى الرب، فمزَّق ثيابه وتغطى بمسح، ودخل بيت الرب يطلب العون (إش 37: 1). وهذا ما فعله الشيخ التقي في ضيقه من ضعفه الجسدي ومن أعدائه، فقد وجد طريق النجاة في الصلاة فنادى مخلِّصه السماوي: «يا الله لا تبعُد عني. يا إلهي إلى معونتي أسرِع. ليخزَ ويَفْن مخاصمو نفسي. ليلبس العار والخجل الملتمسون لي شراً» (آيتا 12، 13). ولا بد أن الله استمع لصرخة طلب العون، وأرسل النجدة السريعة كعهده دوماً، فأعلن الشيخ التقي في الجزء الأخير من مزموره أن إيمانه انتصر. أما مقاوموه فقد غطاهم العار والخجل كرداء، وهم يرون الله يرفع مَن اضطهدوه. لقد ظنوا أن الله تركه، لكنه كان «الساكن في ستر العلي، في ظل القدير يبيت» (مز 91: 1).

رابعاً - انتصار الشيخ التقي

(آيات 14-24)

كم هو رائع أن تتغيَّر نبرة المزمور من خائف يطلب العون السريع إلى مطمئن يعلن ثقته المنتصرة بالله. ويشغل هذا الإعلان نحو نصف المزمور.

1 - الشيخ التقي يعلن انتصاره بعدة طرق: (آيات 14-17).

(أ) **يعلنه بالتسبيح**: «أما أنا فأرجو دائماً، وأزيد على كل تسبيحك» (آية 14). وبقوله «أما» يشرح الفرق بين ما فعله أعداؤه وما يفعله هو. لقد حاولوا أن يفشّلوه، ولكن رجاءه في الله بقي قوياً، لأن الله لم يعطه روح الفشل بل روح القوة والمحبة والنُّصح (2تي 1: 7).

لم تكن هناك نهاية لمراحم الرب للمرنم، ولن تكون، فهي جديدة في كل صباح (مرا 3: 23). وهكذا ضاعف المرنم تسبيحه للرب، لأنه انبهر به وبأفعاله، فرتَّل شاكراً ترتيلاً يزيد ولا ينقص.

(ب) **يعلنه في الاعتراف اليومي به في قلبه ووسط عائلته**: (آيتا 15، 16). كانت مناسبات إنقاذ الرب له كثيرة جداً، أكثر من أن يحصيها، فأخذ طول اليوم يتحدث بها في انبهار وتأثُّر. ويقول في ذلك: «آتي بجبروت السيد الرب، أذكر برَّك وحدك» (آية 16) بمعنى أنه يتحدث عن مآثر السيد الرب، وعن بره وعدالته الفريدة، فطالما أنقذه من أعدائه وردَّ له حقوقه. وقد برَّره من خطاياه وأعطاه الموقف السليم منه، حتى يقول مع بولس: «وليس لي برّي الذي من الناموس، بل الذي بإيمان المسيح: البر الذي من الله بالإيمان» (في 3: 9).

(ج) **يعلنه في الكلام اليومي عن الرب أمام أصدقائه ومعارفه**: «اللهم قد علَّمتَني منذ صباي، وإلى الآن أُخبر بعجائبك» (آية 17) إذ يتحدث بما علَّمه الرب له منذ صباه، وما أجراه معه من عجائب. فما أعظم المعلّم وما أمجد المدرسة! إنها مدرسة الدروس النظرية واللاهوتية التي فيها يعرف من هو الرب. وهي في الوقت نفسه مدرسة الدروس العملية التي يعرف فيها ما يفعله الرب، في الصحة والمرض، وفي الوفرة والعوز، وفي الشباب والشيخوخة. ونتعلم من المرنم أن نشهد دوماً لكل من نقابله عن أمانة الرب، ونخبر بفضائل الذي دعانا من الظلمة إلى نوره العجيب، وبكم صنع الرب بنا ورحمنا.

2 - الشيخ التقي المنتصر يطلب واثقاً: (آيات 18-21).

ينتقل المرنم من إعلان انتصاره إلى الصلاة، فيدعو الله ألاّ يتركه (آية 18). وفي دعائه يعتمد على الله البار الذي يعطي كل ذي حق حقَّه، والمقتدر الذي لا يعسر عليه أمر (آية 19) والذي عمل معه في الماضي، ولا بد أنه سيعمل معه في المستقبل فيعود يعزّيه (آيتا 20، 21).

«وأيضاً إلى الشيخوخة والشَّيْب يا الله لا تتركْني حتى أُخبر بذراعك الجيل المقبل، وبقوَّتك كل آت» (آية 18). يطلب الشيخ التقي من الله أن يحفظ عليه صحته، لينقل إلى أولاده وأحفاده والجيل الجديد اختباراته عن عمل الله معه، ولـيعلّمهم عن أمانة الرب ومحبته، فيستعيدون ذكرى معجزة الخروج في واقع حياتهم المعاصرة، فيتحقَّق مع الشيخ التقي ما قاله صموئيل: «أنا فقد شِخْتُ وشِبتُ، وهوذا أبنائي معكم. وأنا قد سِرْتُ أمامكم منذ صباي إلى هذا اليوم» (1صم 12: 2).

ويعتمد هذا الطلب في استجابته على الله الفريد في برِّه، والفريد في ارتفاعه، فهو ساكن السماء الذي ليس كمثله أحد «وبرُّك إلى العلياء يا الله الذي صنعت العظائم. من مثلك؟» (آية 19). «مَن مثلُك بين الآلهة يا رب؟ مَن مثلك معتزّاً في القداسة، مخوفاً بالتسابيح، صانعاً عجائب؟» (خر 15: 11). صحيح أن الرب سمح لشعبه أن يرى ضيقاً، لكنه لا بد أن يرفعهم من أعماق الهاوية، ليتمتَّعوا بشمس البر والشفاء في أجنحتها. يزيد الرب عظمة المرنم ويعزيه، فيجعله يقول: «أحمدك يا رب، لأنه إذ غضبْتَ عليَّ ارتدَّ غضبُك فتعزّيني» (إش 12: 1). وكل من ينال بر الله بالإيمان بالمسيح يرى علوَّ الله وأعماله، فيختبر معجزةً بعد معجزة، وينال نعمةً فوق نعمة، ويقول مع الشيخ التقي: «أنت الذي أريتَنا ضيقات كثيرة ورديئة، تعود فتُحيينا، ومِن أعماق الأرض

تعود فتُصعِدنا» (آية 20) فإن الله أمين، الذي لا يدعكم تُجرَّبون فوق ما تستطيعون، بل سيجعل مع التجربة أيضاً المنفذ لتستطيعوا أن تحتملوا (1كو 10: 13). إن خفَّة ضيقتنا الوقتية تنشئ لنا أكثر فأكثر ثِقل مجدٍ أبدياً (2كو 4: 17). فإذا سمح الله لنا بتأديب في الحاضر فإنه سيعطينا أخيراً ثمر برٍّ للسلام (عب 12: 11) كما قال صاحب مزمورنا: «تزيد عظمتي، وترجع فتُعزّيني» (آية 21). هذا ما حدث مع داود الذي أخذه الرب من وراء الغنم ونصَّبه ملكاً، وعمل له اسماً عظيماً كاسم العظماء الذين في الأرض (2صم 7: 9). وهو ما حدث مع مُردَخاي البوَّاب الذي سُرَّ الملك بأن يكرمه، ثم صار رئيس وزراء أعظم مملكة في زمانه (أس 6، 8). أما أعظم من تألم فهو المسيح الذي «تألم مرَّة واحدة من أجل الخطايا، البار من أجل الأثمة، لكي يقرِّبنا إلى الله، مماتاً في الجسد ولكن مُحيىً في الروح» (1بط 3: 18).

3 - الشيخ التقي يرتّل مبتهجاً بانتصاره: (آيات 22-24).

كردٍّ فعل طبيعي لرحمة الله المعزية ارتفع صوت الشيخ التقي بالتسبيح لله: «فأنا أيضاً أحمدك برباب، حقَّك يا إلهي. أرنِّم لك بالعود يا قدوس إسرائيل» (آية 22) مرنماً: «مَن هو إلهٌ مثلك غافرٌ الإثم وصافحٌ عن الذنب لبقية ميراثه! لا يحفظ إلى الأبد غضبه، فإنه يُسرُّ بالرأفة. يعود يرحمنا، يدوس آثامنا. وتُطرح في أعماق البحر جميع خطاياهم» (مي 7: 18، 19).

وينبعث ترتيل الابتهاج مِن عُمق النفس المفدية، فتقول: «تبتهج شفتاي إذ أرنم لك ونفسي التي فديتَها» (آية 23) فإن «الرب فادي نفوس عبيده، وكل من اتكل عليه لا يُعاقَب» (مز 34: 22). «فدى بسلام نفسي من قتالٍ عليَّ» (مز 55: 18). وبسبب عظمة هذا الفداء تتغنّى النفس هاتفة: «الذي أحبَّنا وقد غسَّلنا من خطايانا بدمه، وجعلنا ملوكاً وكهنة لله أبيه. له المجد والسلطان إلى أبد الآبدين» (رؤ 1: 5، 6).

وينبعث الترتيل من قلبٍ واثق بالنصر والسلام «ولساني أيضاً اليوم كله يلهج ببرِّك. لأنه قد خزي.. الملتمسون لي شراً» (آية 24) فيلهج لسان الشيخ التقي ببر الله وعدالته، لأنه يدرك أن أعداءه لا بد سيخزون، وأنه لا بد ناجٍ. هذا نصيب كل من يقول: «أنت رجائي يا سيدي الرب، متَّكلي منذ صباي» (آية 5).

اَلْمَزْمُورُ الثَّانِي وَالسَّبْعُونَ

لِسُلَيْمَانَ

1اَللهُمَّ أَعْطِ أَحْكَامَكَ لِلْمَلِكِ، وَبِرَّكَ لاِبْنِ الْمَلِكِ، 2يَدِينُ شَعْبَكَ بِالْعَدْلِ، وَمَسَاكِينَكَ بِالْحَقِّ. 3تَحْمِلُ الْجِبَالُ سَلاَماً لِلشَّعْبِ، وَالآكَامُ بِالْبِرِّ. 4يَقْضِي لِمَسَاكِينِ الشَّعْبِ. يُخَلِّصُ بَنِي الْبَائِسِينَ، وَيَسْحَقُ الظَّالِمَ. 5يَخْشُونَكَ مَا دَامَتِ الشَّمْسُ وَقُدَّامَ الْقَمَرِ، إِلَى دَوْرِ فَدَوْرٍ. 6يَنْزِلُ مِثْلَ الْمَطَرِ عَلَى الْجُزَازِ، وَمِثْلَ الْغُيُوثِ الذَّارِفَةِ عَلَى الأَرْضِ. 7يُشْرِقُ فِي أَيَّامِهِ الصِّدِّيقُ وَكَثْرَةُ السَّلاَمِ، إِلَى أَنْ يَضْمَحِلَّ الْقَمَرُ. 8وَيَمْلِكُ مِنَ الْبَحْرِ إِلَى الْبَحْرِ، وَمِنَ النَّهْرِ إِلَى أَقَاصِي الأَرْضِ.

9أَمَامَهُ تَجْثُو أَهْلُ الْبَرِّيَّةِ، وَأَعْدَاؤُهُ يَلْحَسُونَ التُّرَابَ. 10مُلُوكُ تَرْشِيشَ وَالْجَزَائِرِ يُرْسِلُونَ تَقْدِمَةً. مُلُوكُ شَبَا وَسَبَأَ يُقَدِّمُونَ هَدِيَّةً، 11وَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ الْمُلُوكِ. كُلُّ الأُمَمِ تَتَعَبَّدُ لَهُ، 12لأَنَّهُ يُنَجِّي الْفَقِيرَ الْمُسْتَغِيثَ وَالْمِسْكِينَ إِذْ لاَ مُعِينَ لَهُ. 13يُشْفِقُ عَلَى الْمِسْكِينِ وَالْبَائِسِ، وَيُخَلِّصُ أَنْفُسَ الْفُقَرَاءِ. 14مِنَ الظُّلْمِ وَالْخَطْفِ يَفْدِي أَنْفُسَهُمْ، وَيُكْرَمُ دَمُهُمْ فِي عَيْنَيْهِ، 15وَيَعِيشُ وَيُعْطِيهِ مِنْ ذَهَبِ شَبَا، وَيُصَلِّي لأَجْلِهِ دَائِماً. الْيَوْمَ كُلَّهُ يُبَارِكُهُ.

16تَكُونُ حُفْنَةُ بُرٍّ فِي الأَرْضِ فِي رُؤُوسِ الْجِبَالِ. تَتَمَايَلُ مِثْلَ لُبْنَانَ ثَمَرَتُهَا، وَيَزْهِرُونَ مِنَ الْمَدِينَةِ مِثْلَ عُشْبِ الأَرْضِ. 17يَكُونُ اسْمُهُ إِلَى الدَّهْرِ. قُدَّامَ الشَّمْسِ يَمْتَدُّ اسْمُهُ. وَيَتَبَارَكُونَ بِهِ. كُلُّ أُمَمِ الأَرْضِ يُطَوِّبُونَهُ. 18مُبَارَكٌ الرَّبُّ اللهُ إِلَهُ إِسْرَائِيلَ، الصَّانِعُ الْعَجَائِبَ وَحْدَهُ، 19وَمُبَارَكٌ اسْمُ مَجْدِهِ إِلَى الدَّهْرِ وَلْتَمْتَلِئِ الأَرْضُ كُلُّهَا مِنْ مَجْدِهِ. آمِينَ ثُمَّ آمِينَ.

تَمَّتْ صَلَوَاتُ دَاوُدَ بْنِ يَسَّى

ملكوت المسيا

تحدَّث مز 71 عن بر الله، ويتحدث هذا المزمور عن البركات التي ستفيض من ممثِّله في الأرض، والذي ظن الشعب القديم أنه سليمان بن داود، ولكنه في الحقيقة المسيا المخلِّص المنتظر الآتي من نسل داود. وقد رأينا مزامير كثيرة يصرخ فيها صاحبها من الظلم، ولكننا في هذا المزمور نرى الملك العادل الذي يناصر المظلومين ويوقف أخطاء الظالمين.

وعنوان هذا المزمور «لسليمان»، بمعنى أنه خاصٌّ به ولأجله. وعنوانه في الترجمات السريانية: «مزمورٌ لداود لما ملَّك سليمان، ونبوَّة خاصة بمجيء المسيا، ونداء للأمم». والأغلب أن داود هو الذي كتب هذا المزمور، وأن سليمان سمعه من والده وسجَّله قبل وفاة داود، أو بعدها بوقت قليل.

في هذا المزمور يرى داود مُلك سليمان القادم رمزاً لمُلك المسيح المسيا الملك المخلِّص الآتي. وواضحٌ أن سليمان بدأ بداية عظيمة وانتهى نهاية أليمة، وكان قاسياً على شعبه حتى قالوا بعد موته لابنه رحبعام، الذي كان سيتولى المُلك من بعده: «إن أباك قسّى نيرنا، فالآن خفِّف من عبودية أبيك القاسية ومن نيره الثقيل الذي جعله علينا، فنخدمك» (2أخ 10: 4). ولما رفض رحبعام رجاء الشعب انقسمت المملكة، فلم يتحقق انتظار داود في سليمان. إذاً ستتحقَّق نبوة مزمورنا في

المسيا الملك، ابن الملك، الذي قيل عنه: «هوذا ملكك يأتي إليك. هو عادلٌ ومنصور، وديع.. ويتكلم بالسلام للأمم، وسلطانه من البحر إلى البحر، ومن النهر إلى أقاصي الأرض» (زك 9: 9، 10). وقد اختارت الكنيسة الأولى هذا المزمور كمزمور خاص بالميلاد، لأن المجوس جاءوا من بعيد ليقدموا السجود للملك الوليد، وقدموا له الذهب واللبان والمُر (مت 2: 11). فلْنُصلِّ أن تتحقَّق كلمات هذا المزمور في حياتنا، فيملك المسيح علينا.

في هذا المزمور نجد:

أولاً – ملكوت المسيا ملكوت عادل (آيات 1–7)

ثانياً – ملكوت المسيا ملكوت شامل (آيات 8–15)

ثالثاً – ملكوت المسيا ملكوت أبدي (آيات 16–19)

أولاً ـ ملكوت المسيا ملكوت عادل

(آيات 1-7)

في هذه الآيات السبع ثلاثة أفكار:

1 ـ الشعب يطلب الملكوت العادل: «اللهم أعطِ أحكامك للملك، وبرك لابن الملك» (آية 1). إن «القضاء لله» (تث 1: 17) ولكنه أعطى أحكامه للملك ابن الملك. وللملك الأرضي سلطان نابع من أبيه الملك السابق، كما أن له سلطاناً في شخصه. وقد تراءى الله للملك سليمان ابن الملك داود في جبعون في حُلمٍ وسأله ماذا يعطيه، فطلب سليمان قلباً فهيماً ليميِّز بين الخير والشر (1مل 3: 6–9). وآتاه الله ما طلب. ومع أن سليمان أحب أن يسير في فرائض داود أبيه، إلا أنه كان يذبح ويوقد في المرتفعات، كما يفعل الوثنيون، فلم تتحقق نبوات هذا المزمور فيه، فكان لا بد أن تتحقق في المسيا الملك الآتي، المسيح، الملك ابن الملك، الذي له عرش داود، والذي قال عنه الملاك جبرائيل للعذراء من قبل الحبل به: «هذا يكون عظيماً، وابن العلي يُدعى، ويعطيه الرب الإله كرسي داود أبيه، ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد، ولا يكون لملكه نهاية» (لو 1: 32، 33). وقد قيل عنه بروح النبوَّة: «يحل عليه روح الرب.. فلا يقضي بحسب نظر عينيه، ولا يحكم بحسب سمع أذنيه، بل يقضي بالعدل للمساكين، ويحكم بالإنصاف لبائسي الأرض ويضرب الأرض بقضيب فمه، ويُميت المنافق بنفخة شفتيه» (إش 11: 2–4). وسيتحقق هذا الانتظار أيضاً في المسيح الذي سيأتي أرضنا قاضياً عادلاً «لأنه كما أن الآب يقيم الأموات ويحيي، كذلك الابن أيضاً يحيي من يشاء». (يو 5: 21). وهذا دعاؤنا اليوم: «ليأتِ ملكوتك. لتكن مشيئتك، كما في السماء كذلك على الأرض» (مت 6: 10).

2 ـ وصف الملكوت العادل: (آيات 2–6).

(أ) ملكوت عدل يمنح السلام: «يدين شعبك بالعدل ومساكينك بالحق. تحمل الجبالُ سلاماً للشعب، والآكامُ بالبر» (آيتا 2، 3). هو ملكوت العدالة لمنكسري القلوب، المحتاجين لحماية حكومة عادلة (إش 3: 14، 15). وهذا بيان المسيح الرسمي في مجمع الناصرة، حين قال: «روح الرب عليَّ، لأنه مسحني لأبشِّر المساكين، أرسلني لأشفي المنكسري القلوب» (لو 4: 16–19) وقد جاء المسيح بسنة يوبيل حقيقية، هي «سنة الرب المقبولة» التي فيها تسقط

الديون، وتعود الأراضي المرهونة لأصحابها، ويُطلق العبيد أحراراً. وهذه دعوته الدائمة: «تعالوا إليَّ يا جميع المتعَبين والثقيلي الأحمال، وأنا أريحكم» (مت 11: 28).

وكنتيجةٍ للعدالة التي تسود الجميع «تحمل الجبالُ سلاماً للشعب، والآكامُ بالبر». والجبال والآكام كناية عن أكابر البلاد وأعيانها. فعندما يسود المُلك العادل يسود السلام، لأن الملك يُطمئن شعبه، فيحمل أصحاب المناصب الكبيرة والهامات العالية للشعب سلاماً، لأن الجبل العالي يرى حاجة الوادي المنخفض، فيفيض عليه مما أفاض الله به عليه. «ويكون في آخِر الأيام أن جبل بيت الرب يكون ثابتاً في رأس الجبال، ويرتفع فوق التلال، وتجري إليه كل الأمم.. فيقضي بين الأمم.. لا ترفع أمةٌ على أمة سيفاً.. فيسكن في البرية الحق، والعدل في البستان يقيم، ويكون صُنع العدل سلاماً، وعملُ العدل سكوناً وطمأنينة إلى الأبد» (إش 2: 2–4 و32: 16، 17). إنه المسيح، الذي هو الملك والكاهن، على رتبة ملكي صادق، ملك البر والعدل بفضل سداده لديوننا على الصليب، كما أنه ملك السلام بفضل أنه صالحنا مع الله بموته. وعندما يجيء إلى أرضنا سيفتقد شعبه برحمته، ويكافئ أمانتهم، ويعاقب أعداءهم الذين ظلموهم.

(ب) ملكوت يعلّم التقوى: «يقضي لمساكين الشعب. يخلّص بني البائسين، ويسحق الظالم. يخشَوْنك ما دامت الشمس، وقدام القمر إلى دور فدور» (آيتا 4، 5). أهمل قضاة بني إسرائيل العدالة «لم يقضوا في الدعوى، دعوى اليتيم. وقد نجحوا. وبحق المساكين لم يقضوا» (إر 5: 28). فجاء المسيا لينقذهم، لأن ملكوته ملكوت العدالة للمظلومين من الأطفال واليتامى والأرامل، والمحتاجين لحمايةٍ خاصة، والذين يشعرون بالوحدة، والعاجزين عن مواجهة الحياة، والمهمَّشين، والذين لا يجدون من يعتنون بهم (إش 10: 2). «لأن الحكم هو بلا رحمة لمن لم يعمل رحمة، والرحمة تفتخر على الحكم» (يع 2: 13).

وعندما يكون الملك عادلاً يرى الناس عدالة السماء واضحة، فتمتلئ القلوب بمخافة الرب «يخشَوْنك ما دامت الشمس، وقدام القمر إلى دور فدور». وتستمر أنوار التقوى ساطعة من القلوب ما دامت أنوار الشمس والقمر قائمة. ويخشى الناس الله تحت الشمس والقمر من جيل إلى جيل.

(ج) ملكوت وفرة يفرِّح القلوب: «ينزل مثل المطر على الجُزاز، ومثل الغيوث الذارفة على الأرض. يشرق في أيامه الصدِّيق وكثرة السلام، إلى أن يضمحل القمر» (آيتا 6، 7). وجاءت آية 6 في ترجمة «دار المشرق»: «ينزل كالمطر على العشب، وكالرذاذ الذي يروي الأرض». والأصل العبري يحتمل معنى «الجُزاز» أو «العُشب». فالجُزاز جمع جزة وهي صوف الغنم، وربما تشير إلى جزة جدعون (قضاة 6: 37). والعُشب رمز وفرة الطعام للحيوان والإنسان. وفي عهد الملك العادل يرتوي الشعب من محبة الله الذي «يأتي إلينا كالمطر. كمطرٍ متأخرٍ يروي الأرض» (هو 6: 3) والعدالة تقود إلى النجاح، فالملك العادل يتولى دوماً مملكةً تتوفر فيها كل احتياجات مواطنيها. وهذا ما قاله داود النبي في نشيده الأخير: «إذا تسلَّط على الناس بارٌّ يتسلط بخوف الله، وكنور الصباح إذا أشرقت الشمس. كعُشب من الأرض في صباحٍ صحوٍ مضيء بعد المطر» (2صم 23: 3، 4). فتكون «أمطار بركة» (حز 34: 26) و«تأتي أوقات الفرج من وجه الرب» (أع 3: 19).

وبسبب عدالة الملك «يشرق في أيامه الصدِّيق وكثرة السلام، إلى أن يضمحل القمر». فيكونون فرحين مشرقي الوجوه، أصحاب مكانة عالية، فيكثر السلام إلى أن ينتهي الزمان ويضمحل القمر، ويتحقق القول «أما الصدِّيقون فيزهون كالورق» (أم 11: 28).

ثانياً ـ ملكوت المسيا ملكوت شامل

(آيات 8-15)

عندما يعرف الناس عن هذا الملك العادل، ويتمتعون بعدالة حكمه، يحبون أن يجتمعوا تحت لوائه، فيصبح مُلكه شاملاً.

1 ـ امتداد ملكوت المسيا: (آيات 9-11).

(أ) **هو ملكوت يصل إلى كل الأرض:** «يملك من البحر إلى البحر، ومن النهر إلى أقاصي الأرض» (آية 8). وهذا وصف رمزي لاتساع المملكة، مقتبَس من حدود أرض الميعاد: «أجعل تخومك مِن بحر سوف إلى بحر فلسطين، ومن البرية إلى النهر» (خر 23: 31) ومقتبَس أيضاً من حدود مملكة سليمان: «وكان سليمان متسلطاً.. من النهر إلى أرض فلسطين وإلى تخوم مصر.. على كل ما عَبْر النهر من تَفْسَح إلى غزة، على كل ملوك عبر النهر. وكان له صلحٌ من جميع جوانبه حواليه» (1مل 4: 21، 24). ويوصف هذا الامتداد بالقول: «يأتون إليك من أشور ومن مدن مصر، ومن مصر إلى النهر، ومن البحر إلى البحر، ومن الجبل إلى الجبل» (مي 7: 12). فالعالم كله ملكٌ للرب، يعطيه لمسيحه «وسلطانه من البحر إلى البحر ومن النهر إلى أقاصي الأرض» (زك 9: 10).

(ب) **هو ملكوت تخضع له الشعوب:** «أمامه تجثو أهلُ البرية، وأعداؤه يلحسون التراب» (آية 9). أهل البرية بدوٌ رُحَّل، أحرار في حركتهم، لا يلتزمون بحدود. ولكنهم يرتمون على الأرض أمام صاحب الملكوت الشامل في خضوع كامل «يلحسون التراب كالحيَّة. كزواحف الأرض يخرجون بالرَّعدة من حصونهم. يأتون بالرعب إلى الرب إلهنا» (مي 7: 17). وهذا ما سيتمُّ عند مجيء المسيح ثانيةً عندما «تجثو باسم يسوع كل ركبة ممَّن في السماء ومن على الأرض ومن تحت الأرض، ويعترف كل لسان أن يسوع المسيح هو ربٌّ لمجد الله الآب» (في 2: 10، 11).

(ج) **هو ملكوت تخضع له الملوك:** «ملوك ترشيش والجزائر يرسلون تقدمة. ملوك شبا وسبإ يقدمون هدية. ويسجد له كل الملوك. كل الأمم تتعبَّد له» (آيتا 10، 11). هدايا أولئك الملوك الأغنياء واجب عليهم، يجيئون بها، تعبيراً عن الخضوع للملك المسيّا، من كل مكان بعيد وقريب: من ترشيش التي كانت مستعمرة فينيقية غنية في جنوب أسبانيا، وهي أبعد جزء من العالم المعروف وقتها. ومن الجزائر المتناثرة في البحر الأبيض والتي كان يصعب الوصول إليها. ومن شبا في جنوب شرق شبه الجزيرة العربية المعروفة بغناها وتجارتها، ومن سبإ وهي الحبشة. وعندما يقدم الملوك تقدماتهم وهداياهم، ويسجدون لصاحب الملكوت الشامل، تتعبَّد له كل شعوبهم. وقد تحققت هذه الكلمات جزئياً في سليمان، فقيل: «كان سليمان متسلطاً على جميع الممالك.. كانوا يقدمون الهدايا ويخدمون سليمان كل أيام حياته.. وكانوا يأتون من جميع الشعوب ليسمعوا حكمة سليمان، من جميع ملوك الأرض الذين سمعوا بحكمته» (1مل 4: 21، 34). وستتحقَّق هذه النبوَّة بكاملها، روحياً ومادياً، في المسيح عند مجيئه ثانية إلى أرضنا: «فأعطيك الأمم ميراثاً لك وأقاصي الأرض مُلكاً لك» (مز 2: 8).

2 ـ أسباب امتداد ملكوت المسيا: (آيات 12-15).

(أ) شفقة المسيا: «لأنه ينجي الفقير المستغيث والمسكين إذ لا معين له. يشفق على المسكين والبائس، ويخلِّص أنفس الفقراء» (آيتا 12، 13). لا يمتد مُلك المسيح (المسيا الملك) بالسيف، بل بالعدالة والمحبة وتقديم المعونة للأتباع، فإن هذا الملكوت روحي وانتصاره أيضاً روحي، وقلب مَلِكِه عامر بالشفقة والمحبة والحنان والرحمة، وهو قادر لا يعسر عليه أمر، وعادل لا يقبل الظلم، ويقدِّر احتياج الفقير الصارخ إليه العاجز عن إنقاذ نفسه، وليس له من ينقذه. ينجيه الرب المشفِق عليه من ظلم الآخرين له، ومن ظلمه لنفسه. «ويزداد البائسون فرحاً بالرب، ويهتف مساكين الناس بقدوس إسرائيل» (إش 29: 19).

(ب) فداء المسيا: «من الظلم والخطف يفدي أنفسهم، ويُكرَم دمُهم في عينيه» (آية 14). ينقذ المسيا الراعي الصالح حملانه من الذئاب، ويفدي أنفسهم لأنه يبذل نفسه عنهم، ويكرم دمهم الذي هو حياتهم (لا 17: 11) ويراهم مستحقين أن يفديهم بذبح عظيم. ويعطيهم كل احتياجهم، ويقول: «البائسون والمساكين طالبون ماءً ولا يوجد. لسانهم من العطش قد يبس. أنا الرب أستجيب لهم. أنا إله إسرائيل لا أتركهم» (إش 41: 17).عندما كان الملك شاول يطارد داود، وقع في يد داود، فلم يقتله داود بل غفر له، فقال شاول لداود: «نفسي كانت كريمة في عينيك اليوم» (1صم 26: 21). ونحن أسأنا للرب بخطايانا، ونستحق أن يهلكنا، ولكنه في رحمته يحسب نفوسنا كريمة في عينيه ويفدينا من ظلمنا لأنفسنا ومن ظلم الخطية لنا، ويخلّصنا. وما أعظم الفداء الذي جاءنا المسيح به بصليبه. «الذي فيه لنا الفداء. بدمه غفران الخطايا حسب غنى نعمته» (أف 1: 7).

(ج) عطاء المسيا: «ويعيش ويعطيه من ذهب شبا. ويصلي لأجله دائماً. اليوم كله يباركه» (آية 15). يفدي المسيح حياة المؤمن، ويعطيه عطايا عظيمة، يصفها بأنها «من ذهب شبا» الذي هو أغلى أنواع الذهب ثمناً وأندرها وجوداً. وتقديراً للفضل الإلهي يقدم المؤمن للمسيح أغلى ما عنده، كما قدَّم له المجوس هداياهم (مت 2: 11).

ويصلي المسيح لأجل المؤمن قائلاً: «لستُ أسأل من أجل هؤلاء فقط، بل أيضاً من أجل الذين يؤمنون بي بكلامهم» (يو 17: 20). إنه حي في كل حين يشفع فيهم (عب 7: 8، 25). وتقديراً للفضل الإلهي يصلي المؤمن بلا انقطاع ولا ملل.

واليوم كله يبارك المسيح المؤمن، من شروق الشمس إلى غروبها، ويحفظه من أخطار الليل، فيبارك المؤمن الرب اليوم كله قائلاً: «باركي يا نفسي الرب ولا تنسي كل حسناته» (مز 103: 2).

ثالثاً ـ ملكوت المسيا ملكوت أبدي

(آيات 16-19)

في هذه الآيات الأربع يقول المرنم إن ملكوت المسيا ينمو ويزيد، ويلقى التمجيد والتسبيح من الأرض كلها.

1 ـ ينمو ملكوت المسيا الأبدي بغير توقف: «تكون حُفنة بُرٍّ (قمح) في الأرض في رؤوس الجبال، تتمايل مثل لُبنان ثمرتُها، ويُزهِرون من المدينة مثل عُشب الأرض. يكون اسمه إلى الدهر. قدّام الشمس يمتدّ اسمه، ويتباركون به. كل أمم الأرض يطوِّبونه» (آيتا 16، 17). يبدأ ملكوت المسيا كحُفنة قمح مبذورة على رؤوس الجبال، سرعان ما تنمو

نباتاً، ثم سُنبلاً، ثم قمحاً ملآن في السنبل (مر 4: 28). يهبُّ عليها الريح فيزيد جذورها ثبوتاً وعمقاً في الأرض، فتكون كأرز لبنان، في القوة والجمال والارتفاع، ومثل عشب الأرض النديّ المنعش لمن يراه ويسير فوقه. «أكون لإسرائيل كالندى، يزهر كالسوسن (في جماله ورائحته). ويضرب أصوله كلبنان (في العمق). تمتد خراعيبه (أغصانه)، ويكون بهاؤه كالزيتونة، وله رائحة كلبنان. يعود الساكنون في ظلِّه يُحيُون حنطة، ويزهِرون كجَفنة (شجرة العنب)» (هو 14: 5-7). «في المستقبل يتأصّل يعقوب. يُزهِر ويُفرِع إسرائيل ويملأون وجه المسكونة ثماراً» (إش 27: 6). و«يشبه ملكوت السماوات حبة خردل، أخذها إنسان وزرعها في حقله، وهي أصغر جميع البذور. ولكن متى نَمَت فهي أكبر البقول، وتصير شجرة، حتى إن طيور السماء تأتي وتتآوى في أغصانها» (متى 13: 31، 32). هناك قوة كامنة في بذرة كلمة الله، ولا بد أن تعمل وتمتد ويظهر عملها بفعل الروح القدس. وتستمر قوتها في العمل بين الجميع إلى الأبد، فيتوب كثيرون ويرجعون إلى الرب، فيتحقق قوله: «هكذا قال السيد الرب: ها إني أرفع إلى الأمم يدي، وإلى الشعوب أُقيم رايتي، فيأتون بأولادك في الأحضان، وبناتك على الأكتاف يُحمَلن.. فتعلمين أني أنا الرب الذي لا يخزى منتظروه» (إش 49: 22، 23). وهكذا «يكون اسم المسيا إلى الدهر» ولا يكون لملكه نهاية. «قدّام الشمس يمتد اسمه» من بلد إلى بلد. «ويتباركون به» لأنه المنعِم الجوّاد. «كل أمم الأرض يطوِّبونه» بكلمات ترنيم تمجيد جاءت في الآيتين التاليتين.

2 - تسبِّح كل الأرض ملكوت المسيا الأبدي: «مبارك الرب الله إله إسرائيل الصانع العجائب وحده، ومبارك اسم مجده إلى الدهر. ولتمتلئ الأرض كلها من مجده. آمين ثم آمين» (آيتا 18، 19). يسبحونه على عجائبه الفريدة التي قال أيوب عنها: «فاعلُ عظائمَ لا تُفحص، وعجائبَ لا تُعدّ» (أي 9: 10). يفعل العظائم في الطبيعة التي تُحدِّث بمجده وفي الفَلَك الذي يخبر بعمل يديه. ويفعل العظائم لشعبه «مخبِرين بتسابيح الرب وقوَّته وعجائبه التي صنع» (مز 78: 4) فيعلن قوته ومحبته. ومَن غيره يقدر أن يفعل العجائب! وحده المتفرِّد بهذا العمل، فنباركه لأنه وحده المستحق. وستظل الأرض كلها تسبِّح الرب إلى الأبد، فتمتلئ الأرض من مجده، منحنية أمام مَن قال: «حيٌّ أنا، فتُملأ كل الأرض من مجد الرب» (عد 14: 21).

ويسمع الشعب هذه الدعوة للتسبيح في كل مكان «قوموا باركوا الرب إلهكم من الأزل إلى الأبد، وليتبارك اسم جلالك المتعالي على كل بركة وتسبيح» (نح 9: 5). فيجيبون: «آمين! آمين!» رافعين أيديهم، ويخرّون ويسجدون للرب على وجوههم إلى الأرض (نح 8: 6). «مبارك الرب إلى الدهر. آمين. آمين» (مز 89: 52). «مبارك الرب.. من الأزل وإلى الأبد. ويقول كل الشعب آمين. هللويا» (مز 106: 48).

كم نهنئ أنفسنا بهذا الملك العظيم، صاحب الملكوت العادل الشامل الأبدي، لأنه اختارنا شعباً له. فلنكن بحقٍّ شعبَه وغنم مرعاه!

الجزء الثالث

المزمور الثالث والسبعون

إلى المزمور التاسع والثمانين

الْمَزْمُورُ الثَّالِثُ وَالسَّبْعُونَ

مَزْمُورٌ. لآسَافَ

1إِنَّمَا صَالِحٌ اللهُ لإِسْرَائِيلَ، لأَنْقِيَاءِ الْقَلْبِ. 2أَمَّا أَنَا فَكَادَتْ تَزِلُّ قَدَمَايَ. لَوْلاَ قَلِيلٌ لَزَلَقَتْ خَطَوَاتِي، 3لأَنِّي غِرْتُ مِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ إِذْ رَأَيْتُ سَلاَمَةَ الأَشْرَارِ. 4لأَنَّهُ لَيْسَتْ فِي مَوْتِهِمْ شَدَائِدُ، وَجِسْمُهُمْ سَمِينٌ. 5لَيْسُوا فِي تَعَبِ النَّاسِ، وَمَعَ الْبَشَرِ لاَ يُصَابُونَ. 6لِذَلِكَ تَقَلَّدُوا الْكِبْرِيَاءَ. لَبِسُوا كَثَوْبِ ظُلْمَهُمْ. 7جَحَظَتْ عُيُونُهُمْ مِنَ الشَّحْمِ. جَاوَزُوا تَصَوُّرَاتِ الْقَلْبِ. 8يَسْتَهْزِئُونَ وَيَتَكَلَّمُونَ بِالشَّرِّ ظُلْماً. مِنَ الْعَلاَءِ يَتَكَلَّمُونَ. 9جَعَلُوا أَفْوَاهَهُمْ فِي السَّمَاءِ، وَأَلْسِنَتُهُمْ تَتَمَشَّى فِي الأَرْضِ. 10لِذَلِكَ يَرْجِعُ شَعْبُهُ إِلَى هُنَا، وَكَمِيَاهٍ مُرْوِيَةٍ يُمْتَصُّونَ مِنْهُمْ. 11وَقَالُوا: «كَيْفَ يَعْلَمُ اللهُ، وَهَلْ عِنْدَ الْعَلِيِّ مَعْرِفَةٌ؟» 12هُوَذَا هَؤُلاَءِ هُمُ الأَشْرَارُ، وَمُسْتَرِيحِينَ إِلَى الدَّهْرِ يُكْثِرُونَ ثَرْوَةً.

13حَقّاً قَدْ زَكَّيْتُ قَلْبِي بَاطِلاً وَغَسَلْتُ بِالنَّقَاوَةِ يَدَيَّ، 14وَكُنْتُ مُصَاباً الْيَوْمَ كُلَّهُ، وَتَأَدَّبْتُ كُلَّ صَبَاحٍ. 15لَوْ قُلْتُ أُحَدِّثُ هَكَذَا لَغَدَرْتُ بِجِيلِ بَنِيكَ. 16فَلَمَّا قَصَدْتُ مَعْرِفَةَ هَذَا إِذَا هُوَ تَعَبٌ فِي عَيْنَيَّ، 17حَتَّى دَخَلْتُ مَقَادِسَ اللهِ وَانْتَبَهْتُ إِلَى آخِرَتِهِمْ. 18حَقّاً فِي مَزَالِقَ جَعَلْتَهُمْ. أَسْقَطْتَهُمْ إِلَى الْبَوَارِ. 19كَيْفَ صَارُوا لِلْخَرَابِ بَغْتَةً! اضْمَحَلُّوا فَنُوا مِنَ الدَّوَاهِي. 20كَحُلْمٍ عِنْدَ التَّيَقُّظِ يَا رَبُّ، عِنْدَ التَّيَقُّظِ تَحْتَقِرُ خَيَالَهُمْ.

21لأَنَّهُ تَمَرْمَرَ قَلْبِي، وَانْتُخِسْتُ فِي كُلْيَتَيَّ. 22وَأَنَا بَلِيدٌ وَلاَ أَعْرِفُ. صِرْتُ كَبَهِيمٍ عِنْدَكَ. 23وَلَكِنِّي دَائِماً مَعَكَ. أَمْسَكْتَ بِيَدِي الْيُمْنَى. 24بِرَأْيِكَ تَهْدِينِي، وَبَعْدُ إِلَى مَجْدٍ تَأْخُذُنِي. 25مَنْ لِي فِي السَّمَاءِ؟ وَمَعَكَ لاَ أُرِيدُ شَيْئاً فِي الأَرْضِ. 26قَدْ فَنِيَ لَحْمِي وَقَلْبِي. صَخْرَةُ قَلْبِي وَنَصِيبِي اللهُ إِلَى الدَّهْرِ. 27لأَنَّهُ هُوَذَا الْبُعَدَاءُ عَنْكَ يَبِيدُونَ. تُهْلِكُ كُلَّ مَنْ يَزْنِي عَنْكَ. 28أَمَّا أَنَا فَالاِقْتِرَابُ إِلَى اللهِ حَسَنٌ لِي. جَعَلْتُ بِالسَّيِّدِ الرَّبِّ مَلْجَإِي، لأُخْبِرَ بِكُلِّ صَنَائِعِكَ.

حيرة من نجاح الأشرار

هذا المزمور شكوى مرفوعة لله من مؤمن متألم مضطهَد لأنه يرى الأشرار ناجحين، يعطيهم شرُّهم عائداً أكبر مما تعطيه التقوى والنقاوة، فتشكَّك في صلاح الله من نحو الأبرار، واعتبر التقوى والنقاوة تجارةً بائرة، بل إنها مؤذية، وافتكر أن شر الأشرار مفيد ونافع. وفي بدء حيرته خاف من أن يعلن رأيه لئلا يُعثِر العابدين الأتقياء، ولكن عندما انتهت حيرته ووجد الجواب سجَّل مشاعره كلها في هذا المزمور.

انجلت ظلمة أفكار المرنم عندما دخل مقادس الرب، فرأى الأمور في منظورها الصحيح، وأدرك أن البوار والخراب سيحلُّ بنجاح الأشرار فجأة، أما التقوى فلها موعد الحياة الحاضرة والمستقبلة. واعترف للرب بخطئه، وقدَّم له شكره على مجد الاقتراب منه.

يتحدث هذا المزمور عن حيرة المؤمن وهو يمرُّ بأزمات لا يجد لها تفسيراً، ويعلمنا أن خير ما نفعله هو أن نمثُل في محضر الله ونسأله أن يجاوب على أسئلتنا. وهو لا يتضايق من شكوكنا، ولا يطردنا من محضره لأننا ناقصو الفهم، بل يقرِّبنا إليه ويكشف لنا أسرار محبته، فنقول مع صاحب هذا المزمور: «ولكني دائماً معك. أمسكت بيدي اليمنى. برأيك تهديني، وبعد إلى مجد تأخذني» (آيتا 23، 24).

يذكِّرنا مزمور 73 بمزمور 37 الذي فيه يواجه المرنم مشكلة نجاح الأشرار ومتاعب المؤمنين، فيطلب من المؤمنين الصبر والثقة في الرب، لأن نجاح الأشرار قصير المدى، بينما مجازاة المؤمن أبدية. كما يذكِّرنا بمزمور 49 الذي قال إن الثروة لا تستمر في إسعاد صاحبها، بينما عناية الرب بالأبرار دائمة لا تنقطع. ومع تشابه مزمورنا مع مزموري 37، 49 في الحديث عن نجاح الأشرار، إلا أن مزمور 73 يضيف بُعداً آخر هو متاعب المؤمنين وحيرتهم وهم يرون نجاح الأشرار، ويتميَّز بأنه يطوِّب المؤمن على علاقته المفرحة بالرب، ويشرح جمال الأُنس بالله في الدنيا والآخرة باعتباره الخير الأسمى، فإن الحياة في هذا العالم فصل واحد من فصول قصة الحياة، ولكن هناك حياة أفضل قادمة.. فما أجمل أن يسلِّم المؤمن أمره للرب، وأن يعبِّر عن حبه له، باعتبار أن هذه العلاقة أسمى من كل شيء في الوجود.

وعلى كل متعَب حائر صاحب شكوى أن يجثو أمام الله ليتعلَّم في مقادسه كما تعلَّم آساف، فليس السؤال ممنوعاً ولا الشك جريمة.. لقد استجاب المسيح لشكوك تلميذه توما لما شك في القيامة، وقال له: «هات يدك وضَعْها في جنبي، ولا تكن غير مؤمن بل مؤمناً» (يو 20: 27). وهو نفس ما يفعله مع كل مؤمن يسأل ويشكو، فيجيبه الرب على تساؤلاته، ويمحو شكوكه، فيهتف مع توما: «ربي وإلهي».

في هذا المزمور نجد:

أولاً – إعلان ثقة (آية 1)

ثانياً – المؤمن يتساءل في حيرته (آيات 2–14)

ثالثاً – المؤمن يجد الجواب المطمئن (آيتا 15–28)

أولاً - إعلان ثقة
(آية 1)

قبل أن يُدخلنا المرنم إلى متاهة شكوكه وتساؤلاته يفتتح مزموره بالنتيجة النهائية التي توصَّل إليها، فيقول: «إنما صالح الله لإسرائيل، لأنقياء القلب». و«إنما» هنا للتأكيد، فهو يعلن أن الله وحده هو الصالح لشعبه. وحتى لو سمح بدخولهم في المتاعب إلا أنه محب و«طيبٌ هو الرب للذين يترجَّونه، للنفس التي تطلبه» (مرا 3: 25)، ولإسرائيل «الذي يجاهد مع الله» (تك 32: 28). لقد جاهد المرنم مع الرب بسؤاله وشكواه، فباركه كما بارك يعقوب عندما جاهد لينال البركة، فتأكد أن الله صالح لأنقياء القلب «لأنهم يعاينون الله» (مت 5: 8).

عندما يشرق علينا صلاح الله ينقشع الظلام من عيوننا، فنراه صالحاً دائماً لأن صلاحه نابع من طبيعته الصالحة، ونتأكد من هذا الصلاح حتى لو كانت الظروف التي نجوزها تقول عكس هذا، لأن شمس محبته تشرق من وراء غيوم الهموم، ولأن الغلاف الخارجي الأسود يحتوي على رسالة حب كبير، فندرك معنى قول المرنم: «من يصعد إلى جبل الرب، ومن يقوم في موضع قُدسه؟ الطاهر اليدين، والنقي القلب، الذي لم يحمل نفسه إلى الباطل، ولا حلف كذباً. يحمل بركة من عند الرب، وبراً من إله خلاصه» (مز 24: 3–5).

ثانياً - المؤمن يتساءل في حيرته
(آيات 2-14)

1- مشكلة المؤمن: »أما أنا فكادت تزل قدماي. لولا قليل لزلقت خطواتي، لأني غرتُ مـن المتكبِّـرين، إذ رأيـتُ سـلامة الأشرار» (آيتا 2، 3). قول المرنم: «أما أنا» يعني أنه اختلف مع الرب حتى كادت تضيع منه سبُل الرب المستقيمة، فبـدأ رحلـة خطيرة كادت تزلُّ فيها قدماه في بالوعة اليأس، لأنه سار في أرض موحلة. ولولا رحمة الرب لزلقت خطواته، لأنه غار من نجاح الأشرار، مع أن داود قال: «لا تغَر من الأشرار، ولا تحسد عُمَّال الإثم، فإنهم مثل الحشيش سريعاً يُقطَعون، ومثل العشب الأخضر يذبلون» (مز 37: 1، 2). وقال الحكيم: «لا تحسد الظالم، ولا تَختَرْ شيئاً من طرقه.. لا يحسدنَّ قلبُك الخاطئين، بل كُن في مخافة الرب اليوم كله..» (أم 3: 31 و23: 17). وكان يجب أن يرتل مع داود: «تمسَّكت خطواتي بآثارك فما زلت قدماي» (مز 17: 5) ومع بني قورح: «لم يرتد قلبنا إلى وراء، ولا مالت خطوتنا عن طريقك» (مز 44: 18).

وفي غمرة آلام المرنم من متاعبه نسي أن الذين غار منهم «متكبرون» يظنون أنهم يقدرون أن يعيشوا وينجحوا بدون الـرب، مع أنه «لا يقف المفتخرون قدام عينيك. أبغضت كل فاعلي الإثم» (مز 5: 5)، وأنهم أشرار، وكل شرير لا بد يهلك.

2- سبب مشكلة المؤمن: يذكر المرنم أربعة أسباب لمشكلته:

(أ) راحة الأشرار: «لأنه ليست في موتهم شدائد، وجسمهم سمين. ليسوا في تعب الناس، ومع البشـر لا يُصـابون» (آيتا 4، 5). يقول المرنم إنه لم يرَ شريراً يموت في مقتبل عمره، ولا في الأسر، ولا مصاباً بمرض خطيـر، ولا مقتـولاً. رأى الأشرار دوماً في صحة وعافية «جسمهم سمين»، مع أن «الإنسان مولودٌ للمشقة» (أي 5: 7). ولم يقاسِ هؤلاء الأشرار الأتعـاب التي يقاسي منها سائر البشر الصالحون. ولا بد أنه كان يذكر جدَّه الأكبر يعقوب لما سأله فرعون عن عمره فقـال: «أيـام سـني غربتي مئة وثلاثون سنة. قليلة وردية» (تك 47: 9). فكيف يقاسي أبو الأسباط ويسمن جسم الأشرار؟

(ب) كبرياء الأشرار: «لذلك تقلَّدوا الكبرياء. لبسوا كثوب ظلمهم. جحظت عيونهم من الشحم. جاوزوا تصـوُّرات القلب» (آيتا 6، 7). تحيَّر المرنم من كبرياء الأشرار، فعندما عاشوا في راحة افتخروا وكأن كبرياءهم قلائد شرف حول أعنـاقهم، وصارت حياتهم ظلماً مستمراً للمساكين، وكأن ظلمهم ثياب لا يستغنون عنها. وقد وصف داود الشرير بأنه «لـبس اللعنـة مثـل ثوبه» (مز 109: 18).. وعندما أكلوا ما ظلموا به الفقير سمنوا، فجحظت عيونهم من كثرة السِّمَن! ووصف أليفاز التيماني أحـد هؤلاء الأشرار المتكبِّرين بالقول: «لأنه قد كسا وجهه سَمْناً، وربَّى شحماً على كليتيه» (أي 15: 27) وقد بلغت كبريـاؤهم القمَّـة فتفوقوا في الشر على من سبقوهم وزادوا عنهم. ولم يسبق للمرنم أن رأى شخصاً أو سمع عن شخص بمثل هذه الكبرياء!

(ج) حديث الأشرار: «يستهزئون ويتكلمون بالشر ظلماً. من العلاء يتكلمون. جعلوا أفواههم في السماء وألسـنتهم تتمشى في الأرض» (آيتا 8، 9). استراح الأشرار وتكبَّروا وظلموا الآخرين، فظنوا أنهم آلهة وأن أقوالهم فـروض يجـب علـى مستمعيها أن يصدقوها! فتكلموا كأصحاب سلطان، ونادوا بمبادئهم الشريرة كأنها شرائع إلهية لا تتغير، فجدَّفوا علـى الله وأهـانوا البشر المخلوقين على صورته.

(د) أتباع الأشرار: «لذلك يرجع شعبه إلى هنا، وكمياهٍ مروية يُمتَصوّن منهم. وقالوا: كيف يعلم الله؟ وهل عند العلي معرفته؟» (آيتا 10، 11). يتحيَّر المرنم من شعبية هؤلاء الأشرار، فقد رجع كثيرون من شعب الرب عن طريق الـرب وتبعـوا هؤلاء الناجحين الأشرار بعد أن رأوا نجاحهم، وظنوا أن كلامهم مُنزل وأن أفكارهم نماذج يُقتدى بها، فأخذوا يشربون من كـأس خطاياهم وكأنه مياه تروي ظمأهم! وهتف هؤلاء التابعون المضلَّلون: «هل عند العلي معرفة؟»، مردِّدين ما قاله الأشرار. «الشرير حسب تشامخ أنفه يقول: (الله) لا يطالب. كل أفكاره أنه لا إله.. قال في قلبه: إن الله قد نسي. حجب وجهه. لا يرى إلـى الأبـد.. لماذا أهان الشرير الله؟ لماذا قال: لا تطالب؟» (مز 10: 4، 11، 13).

3 – المؤمن يكرر شرح مشكلته: »هوذا هؤلاء هم الأشرار، ومستريحون إلى الدهر يُكثِرون ثروةً. حقاً قد زكَّيتُ قلبي باطلاً وغسلتُ بالنقاوة يديَّ، وكنتُ مصاباً اليوم كله، وتأدَّبتُ كل صباح» (آيات 12–14). في هذه الآيات الثلاث يلخِّص المرنم مشكلته، فيقول إن الأشرار مستريحون وأغنياء، فما هي إذاً مجازاة التقوى؟ إن ضميره صالح، وقد مارس كل فراض شريعة موسى من غسل اليدين والرِّجلين (خر 30: 17، 21)، ولكنه لم يأخذ من تقواه ونقاوته وممارسته للشريعة إلا المتاعب والاضطهادات والتأديبات كل صباح، وكان مصاباً اليوم كله، مع أن الذين يعصون الشريعة لا يصُابون مع البشر (آية 5)!

ثالثاً - المؤمن يجد الجواب المطمئن (آيات 15-28)

لم يستسلم المرنم لشكوكه، بل صارع مع أسئلته. وفي مقادس الرب وجد الجواب المطمئن، بعد أن كشف له الرب مشيئته الصالحة.

1- انتقل من التذمُّر إلى الانتصار: (آيات 15–17).

(أ) لم يَشْكُ المرنم لإخوته المؤمنين: «لو قلتُ أحدِّثُ هكذا لغدرتُ بجيل بنيك» (آية 15). كان المرنم رغم تساؤلاته يحب الرب، ويحب المؤمنين، فرفض أن يغدر بهم بتصدير شكوكه إليهم. كما كان يثق أن الرب لا بد سيجلو غمَّته، فلماذا يذيع أسئلة الغم؟.. صحيحٌ أنه لو حدَّث الناس بأسئلته المحيرة لفرَّج عن نفسه بالتعبير عن دواخله، ولاستراح قليلاً. لكن هذه الراحة كانت ستُفضي به إلى الانضمام لجماعة الأشرار، وسيحزن مرة أخرى وهو يرى الفكر المضلِّل ينتصر وينتشر ويزيد أتباعه، فيقولون: «من هو القدير حتى نعبده، وماذا ننتفع إن التمسناه؟» (أي 21: 15). لقد كان يعلم أن شعب الرب هم أبناء الرب، فكيف يوقع الشك في قلوبهم، وكيف يهجر قضيتهم، وكيف يجرح مشاعرهم، وكيف يضع العثرات في طريقهم؟

(ب) لم يخدع المرنم نفسه: «فلما قصدت معرفة هذا إذا هو تعب في عينيَّ» (آية 16). كان المرنم متحيراً لأنه عجز عن مصالحة محبة الله وعدالته وأمانته مع واقعه الصعب وآلامه المتزايدة.. صحيح أنه لم يُرِد إزعاج غيره، لكن أمانته مع نفسه حيَّرته وأرهقته وهو يقلب الأفكار في رأسه.

(ج) وجد المرنم النصرة في حضرة الله: «حتى دخلتُ مقادس الله وانتبهتُ إلى آخرتهم» (آية 17). وصل المرنم للحل وانتصر عندما دخل بيت الله وحدثت مواجهة روحية بينه وبين ربه، فكانت هذه نقطة التحوُّل في موقفه، بعد أن أدرك أن وعود الله صادقة، وأن الشرير لا بد سينال عقوبة شره، وهي الموت. وكان يوسف قد سبق المرنم في حل مشكلة شرور إخوته، بعد أن عجز وهو الصغير عن ردِّهم إلى رُشدهم، فحمل أخبارهم إلى أبيه يعقوب، وهو الأقدر والأجدر بنصح أولاده. ويمكننا أن نتبع مثال يوسف والمرنم، لأن لنا أباً سماوياً نحكي له مشاكلنا في مخدع الصلاة أثناء خلوتنا به، فيجيئنا التأكيد منه والراحة عنده.

2- رأى المرنم نهاية الأشرار: »حقاً في مزالق جعلتهم. أسقطتهم إلى البوار. كيف صاروا للخراب بغتة؟ اضمحلوا. فنوا من الدواهي. كحُلم عند التيقظ يا رب، عند التيقظ تحتقر خيالهم» (آيات 18–20). في محضر الرب رأى المرنم أسرار عناية الله المقدسة، وعرف أن آخرة الأشرار مزالق وبوار وخراب ودواهي تحل بهم فجأة، دون انتظار منهم ولا من تابعيهم. وكأن الله كان نائماً يترك الأشرار وشأنهم، فاستيقظ ليحتقر خيالاتهم، فيكتشفون أنهم عاشوا حُلماً وخيالاً، لا حقيقة. وصدق صوفر النعماتي: «فرح الفاجر إلى لحظة.. كالحُلم يطير فلا يوجد، ويُطرَد كطيف الليل» (أي 20: 5، 8). إنهم كالزوان وسط الحنطة، فلا بد أن يجيء يوم الحصاد عندما يُحرقون بنار لا تُطفأ (مت 13: 30).

في مطلع مزموره بدأ المرنم رحلة خطيرة كادت تزل فيها قدماه، لأنه سار في أرض موحلة. ولكن في بيت الرب اكتشف أنه ثابت على صخرة، وعرف أن الأشرار هم الذين سينزلقون إلى الهاوية فإذا نجاحهم حلم، وإذا هم أشباح يوجدون اليوم ويتـدمَّرون فوراً لأن شمس الحقيقة تنهي وجودهم الوهمي، ولأن الشر لا يمكن أن يسود، كما قال الله عن الأشرار: «يكـون طـريقهم لهـم كمزالق في ظلام دامس، فيُطرَدون ويسقطون فيها، لأني أجلب عليهم شراً سنة عقابهم، يقول الرب» (إر 23: 12).

3- تعلّق المرنم بالرب: (آيات 21-28).

(أ) اعترف له: «لأنه تمرمر قلبي وانتخَسْتُ في كليتيَّ. وأنا بليد ولا أعرف. صرتُ كبهيم عندك» (آيتا 21، 22). تألم المرنم لأنه كان متعجِّلاً فلم يرَ عدالة الله وحقَّه إلى أن دخل مقادس الله، فبكَّته ضميره، وتمرمر قلبه، وانتخس في كليتيـه. وكـان الأقدمون يعتبرون الكلية مركز العواطف، كما نتحدث نحن اليوم عن القلب. واعترف المرنم أنه كان بليداً غبياً كـالبهيم الـذي لا يدرك. وقد ميَّز الله الإنسان عن الحيوان بنعمة العقل، فكيف فات المرنم تاريخ الله الرقيق شعبه؟ وكيف نسي معاملات الله الصالحة معه؟ حقاً «الرجل البليد لا يعرف، والجاهل لا يفهم هذا» (مز 92: 6).

(ب) ائتنس بـه: «ولكني دائماً معك. أمسكتَ بيدي اليمنى. برأيك تهديني، وبعد إلى مجد تأخذني. من لي في السـماء؟ ومعك لا أريد شيئاً في الأرض. قد فني لحمي وقلبي. صخرة قلبي ونصيبي الله إلى الدهر» (آيات 23-26). عاد المرنم يقارن بين نفسه والأشرار، فقال «ولكني دائماً معك» فقد عزم أن يسير مع الرب، ولسان حاله: «التصقت نفسي بك. يمينك تعضدني» (مـز 63: 8). وقرر أن تكون شريعة الرب سراجاً لرجله ونوراً لسبيله (مز 119: 105) فيطيع وصايا الرب لتكون بركـة لحاضـره ومستقبله، فيهتدي برأي الرب هنا ويدخل مجده هناك، كما سار أخنوخ مع الله ولم يوجد لأن الله أخذه (تك 5: 24). ويا له من مجد أن يمسك ملك الملوك يمين المرنم ليؤكد له محبته ورعايته.. وفي صُحبة الرب للمرنم، وصُحبة المرنم للرب عرف أنـه إن كـان الرب ساكن السماء له، فلن تكون به حاجة إلى شيء أو شخص في الأرض، لأن الرب خيره ومصدر سعادته، فيقول: «قلتُ للرب: أنت سيدي. خيري لا شيء غيرك» (مز 16: 2). لم يعُد يعنيه إن نجح الأشرار أو إن تألم هو، لأنه في صحبة الرب.. ومـع أن جسده وقواه يخوران إلا أن الرب سيبقى ملجأه الحصين يحميه من كل خطر، فيقول: «إنما الرب صخرتي وخلاصي، ملجإي فـلا أتزعزع. على الله خلاصي ومجدي. صخرة قوتي محتماي في الله» (مز 62: 6). الرب نصيبه إلى الأبد، فلا ينزعـه أحـدٌ مـن الرب، ولا الربَّ منه. إنه في هذا يعبر عن انتمائه للرب كأحد كهنة الرب، الذين لم يكن لهم نصيب في الأرض، لأن الرب نصيبهم (تث 10: 9)، ونعم النصيب!

(ج) اقترب منـه: «هوذا البعداء عنك يبيدون. تُهلك كل من يزني عنك. أما أنا فالاقتراب إلى الله حسنٌ لـي. جعلـتُ بالسيد الرب ملجإي لأخبر بكل صنائعك» (آيتا 27، 28). لما كان الله مصدر الحياة فإن كل بعيد عنه ميت في ذنوبـه وخطايـاه. ولما كان البشر جميعاً ملكٌ لله لأنه خلقهم واعتنى بهم وافتداهم، فإن كل من يبتعد عنه يُعتبر خائناً له ولملكوته. وكان بنو إسرائيل يعتبرون أنفسهم «عروس الله» فكل ابتعاد عن الله خيانة وزنى روحي (هو 2: 2-4).. أما كل من يقترب إليه فينال الحياة الفضلى، فقد جاء المسيح ليعطينا حياة وحياة أفضل (يو 10: 10). ومن اختبر الحياة في المسيح لا يتوقَّف عن الحديث عنها، فيخبـر بكـم صنع الرب معه.

تعالوا بنا ندخل مقادس العلي دائماً فنجد إجابات شافية لأسئلتنا، ونتمتع بصحبته الرقيقة، ونخبر بفضائل الذي دعانا من الظلمة إلى نوره العجيب. وإن كان أحدنا بعيداً عن الرب، فليقترب إليه تائباً. وإن كان أحدنا حائراً فالرب يطمئن قلبه.

ليثبِّت الرب إيماننا، وليعمِّق رجاءنا به، مهما بدت الظروف من حولنا صعبة أو قاسية.

الْمَزْمُورُ الرَّابِعُ وَالسَّبْعُونَ

قَصِيدَةٌ لآسَافَ

1 لِمَاذَا رَفَضْتَنَا يَا اللهُ إِلَى الأَبَدِ؟ لِمَاذَا يُدَخِّنُ غَضَبُكَ عَلَى غَنَمِ مَرْعَاكَ؟ 2اذْكُرْ جَمَاعَتَكَ الَّتِي اقْتَنَيْتَهَا
مُنْذُ الْقِدَمِ وَفَدَيْتَهَا، سِبْطَ مِيرَاثِكَ جَبَلَ صِهْيَوْنَ هَذَا الَّذِي سَكَنْتَ فِيهِ. 3ارْفَعْ خَطَوَاتِكَ إِلَى الْخَرِبِ الأَبَدِيَّةِ. الْكُلَّ
قَدْ حَطَّمَ الْعَدُوُّ فِي الْمَقْدِسِ. 4قَدْ زَمْجَرَ مُقَاوِمُوكَ فِي وَسَطِ مَعْهَدِكَ، جَعَلُوا آيَاتِهِمْ آيَاتٍ. 5يَبَانُ كَأَنَّهُ رَافِعُ
فُؤُوسٍ عَلَى الأَشْجَارِ الْمُشْتَبِكَةِ. 6وَالآنَ مَنْقُوشَاتِهِ مَعاً بِالْفُؤُوسِ وَالْمَعَاوِلِ يَكْسِرُونَ. 7أَطْلَقُوا النَّارَ فِي
مَقْدِسِكَ. دَنَّسُوا لِلأَرْضِ مَسْكَنَ اسْمِكَ. 8قَالُوا فِي قُلُوبِهِمْ: «لِنُفْنِيَنَّهُمْ مَعاً». أَحْرَقُوا كُلَّ مَعَاهِدِ اللهِ فِي الأَرْضِ.
9آيَاتِنَا لاَ نَرَى. لاَ نَبِيَّ بَعْدُ. وَلاَ بَيْنَنَا مَنْ يَعْرِفُ حَتَّى مَتَى.

10حَتَّى مَتَى يَا اللهُ يُعَيِّرُ الْمُقَاوِمُ، وَيُهِينُ الْعَدُوُّ اسْمَكَ إِلَى الْغَايَةِ؟ 11لِمَاذَا تَرُدُّ يَدَكَ وَيَمِينَكَ؟ أَخْرِجْهَا
مِنْ وَسَطِ حِضْنِكَ. أَفْنِ. 12وَاللهُ مَلِكِي مُنْذُ الْقِدَمِ، فَاعِلُ الْخَلاَصِ فِي وَسَطِ الأَرْضِ. 13أَنْتَ شَقَقْتَ الْبَحْرَ
بِقُوَّتِكَ. كَسَرْتَ رُؤُوسَ التَّنَانِينِ عَلَى الْمِيَاهِ. 14أَنْتَ رَضَضْتَ رُؤُوسَ لَوِيَاثَانَ. جَعَلْتَهُ طَعَاماً لِلشَّعْبِ لأَهْلِ
الْبَرِّيَّةِ. 15أَنْتَ فَجَّرْتَ عَيْناً وَسَيْلاً. أَنْتَ يَبَّسْتَ أَنْهَاراً دَائِمَةَ الْجَرَيَانِ. 16لَكَ النَّهَارُ وَلَكَ أَيْضاً اللَّيْلُ. أَنْتَ
هَيَّأْتَ النُّورَ وَالشَّمْسَ. 17أَنْتَ نَصَبْتَ كُلَّ تُخُومِ الأَرْضِ. الصَّيْفَ وَالشِّتَاءَ أَنْتَ خَلَقْتَهُمَا.

18اُذْكُرْ هَذَا: أَنَّ الْعَدُوَّ قَدْ عَيَّرَ الرَّبَّ، وَشَعْباً جَاهِلاً قَدْ أَهَانَ اسْمَكَ. 19لاَ تُسَلِّمْ لِلْوَحْشِ نَفْسَ يَمَامَتِكَ.
قَطِيعَ بَائِسِيكَ لاَ تَنْسَ إِلَى الأَبَدِ. 20انْظُرْ إِلَى الْعَهْدِ، لأَنَّ مُظْلِمَاتِ الأَرْضِ امْتَلأَتْ مِنْ مَسَاكِنِ الظُّلْمِ. 21لاَ
يَرْجِعَنَّ الْمُنْسَحِقُ خَازِياً. الْفَقِيرُ وَالْبَائِسُ لِيُسَبِّحَا اسْمَكَ.

22قُمْ يَا اللهُ. أَقِمْ دَعْوَاكَ. اذْكُرْ تَعْيِيرَ الْجَاهِلِ إِيَّاكَ الْيَوْمَ كُلَّهُ. 23لاَ تَنْسَ صَوْتَ أَضْدَادِكَ، ضَجِيجَ
مُقَاوِمِيكَ الصَّاعِدَ دَائِماً.

لماذا يدخِّن غضبك؟

هذا المزمور قصيدة رثاء كتبها آساف المرنم بعد أن خرَّب نبوخذنصَّر ملك بابل بلاده عام 586 ق م، وذبح الكثيرين من شعبه وترك جثثهم في الشوارع، فصارت بلاده موضوع سخرية جيرانها.. وهدم الهيكل الذي بناه الملك سليمان وأحرقه، فتوقَّفت العبادة، وكأن الله قد رفض شعبه (2مل 25). وقد بكى النبي إرميا هذا الموقف في مراثيه وقال عن بلاده: «تاخت (غاصت) في الأرض أبوابُها. أهلك وحطَّم (العدوُّ) عوارضها. ملكُها ورؤساؤها (مسبيون) بين الأمم. لا شريعة. أنبياؤها أيضاً لا يجدون رؤيا من قِبل الرب. شيوخ بنت صهيون يجلسون على الأرض ساكتين. يرفعون التراب على رؤوسهم. يتنطَّقون بالمِسح» (مرا 2: 9، 10).

هذا المزمور صرخة متألمٍ يطالب الله أن يذكر عهده مع شعبه، ويرحمه. وكان بنو إسرائيل يُرنِّمونه في أيام الصوم التي يعترفون فيها للرب بخطاياهم، ويتذلَّلون أمامه ليُعيد إلى هيكلهم أمجاده. ويوجد تشابه كبير بين هذا المزمور ومزمور 79 في الموضوع والمحتوى، ولا بد أن الله ألهم كاتبيهما أن يكتباهما في المناسبة المؤلمة نفسها.

في هذا المزمور نجد:

أولاً – شكوى المرنم (آيات 1–11)
ثانياً – ذكريات الرحمة الماضية (آيات 12–17)
ثالثاً – طلب النجاة (آيات 18–23)

أولاً ـ شكوى المرنم
(آيات 1-11)

عندما زادت آلام المرنم وجَّه أسئلته من قلبٍ يحب الله إلى الإله الذي يحبه وهو يذكر كلمات النبي إرميا: «يا رب، عزِّي وحِصني وملجإي في يوم الضيق» (إر 16: 19)

1 - السؤال لماذا؟: «لماذا رفضتنا يا الله إلى الأبد؟ لماذا يدخِّن غضبُك؟» (آية 1أ وب). يبدأ المرنم شكواه بتوجيه سؤالين لله:

(أ) لماذا رفضتنا؟: بدا للمرنم أن الله رفض شعبه بصفة دائمة، فصارت بلادهم «خِرباً أبدية» (آية 3) وأهان العدو اسم الله «إلى الغاية» (آية 10). وهو يسأل: لماذا؟ لا لأنه يتذمَّر على الله، بل لأنه يريد أن يعرف ليعدِّل مساره ومسار شعبه، فيشرق وجه الرب عليه بالرضا «لأن السيد لا يرفض إلى الأبد» (مرا 3: 31).

(ب) لماذا يدخِّن غضبك؟: والدخان يرمز إلى اشتعال نار الغضب الإلهي، كما قال داود إن الرب في غضبه «صعد دخانٌ من أنفه، ونارٌ من فمه أكلت. جمرٌ اشتعلت أمامه» (مز 18: 8).

2 - وصف الشعب المتسائل: «لماذا يدخِّن غضبك على غنم مرعاك؟ اذكر جماعتك التي اقتنيتها منذ القِدم وفديتها، سبط ميراثك، جبل صهيون هذا الذي سكنت فيه» (آيتا 1ج، 2). يذكر المرنم ثلاثة أوصاف لشعبه دفعته للسؤال:

(أ) هم غنم الراعي الصالح: «غنم مرعاك». تشجَّع المرنم وسأل الرب، لأنه راعيه الأمين الصالح المسؤول عنه، كما قيل: «نحن شعبك وغنم رعايتك، نحمدك إلى الدهر. إلى دور فدور نحدِّث بتسبيحك» (مز 79: 13). إنه يثق أن الله راعيه، فطالما نادى: «هلم نسجد ونركع ونجثو أمام الرب خالقنا. لأنه هو إلهنا ونحن شعب مرعاه وغنم يده» (مز 95: 6، 7). والغنم مشهورة بضعفها وجهلها وسهولة ضلالها، فهي تعرف كيف تضل ولا تعرف كيف ترجع، ولا تستطيع الدفاع عن نفسها. والقول: «غنم مرعاك» يعني الحاجة إلى الهداية والحماية، وتدبير المصالح بطريقة مستمرة من الراعي الذي «يرعى قطيعه. بذراعه يجمع الحملان، وفي حضنه يحملها، ويقود المرضعات» (إش 40: 11).

(ب) هم المفديون الذين اشتراهم: «اذكر جماعتك التي اقتنيتها منذ القِدم وفديتَها، سبط ميراثك» (آية 2أ). أعطى المرنم نفسه حق الالتجاء إلى الله لأنه من الجماعة التي اختارها الله منذ القديم، وافتداها من عبودية فرعون وأطلقها حرَّةً من سوء العذاب، فصاروا ميراث الرب بين الأمم. وكان موسى قد ترنَّم بعد الخروج من مصر: «ترشد برأفتك الشعب الذي فديته. تهديه بقوَّتك إلى مسكن قُدسك.. تقع عليهم (المصريين) الهيبة.. حتى يعبر الشعب الذي اقتنيته» (خر 15: 13، 16).. وفي نور العهد الجديد ندرك معنى الفداء والافتداء أكثر «عالمين أنكم افتُديتُم لا بأشياء تفنى، بفضة أو ذهب، من سيرتكم الباطلة التي تقلَّدتموها من الآباء، بل بدم كريم، كما من حمل بلا عيب ولا دنس، دم المسيح» (1بط 1: 18، 19).

(ج) هم الذين سكن الله وسطهم: «جبل صهيون هذا الذي سكنت فيه» (آية 2ب). فالرب رعى شعبه، وفداهم، ويحلُّ وسطهم في هيكله المقدس. ولا يمكن أن يخرب إلى الأبد المكان الذي يسكن الله فيه، كما لا يمكن أن يغرق القارب

الذي كان المسيح فيه بالرغم من العاصفة العاتية التي واجهت التلاميذ.. إن كل الذين يطيعون الأمر: «ليحل المسيح بالإيمان في قلوبكم» (أف 3: 17) لا يمكن أن يغرقوا في بحار الهموم والمشاكل!

3 - الدافع على السؤال: (آيات 3-9). يذكر المرنم خمسة أسباب دفعته للسؤال:

(أ) العدو حطَّم الكل: «ارفع خطواتك إلى الخِرب الأبدية. الكلَّ قد حطم العدوُّ في المقدس» (آية 3). صرخ المرنم بعبارات بالغة القوة، طالباً التدخُّل الإلهي للإنقاذ من العدو الذي نشر الخراب، فقد هاجم الأشرار جماعة المؤمنين وهزموهم ودمَّروا كل شيء، وأخذوا آنية الهيكل المقدسة ووضعوها في بيت صنمهم النجس، فأصبح الهيكل خِرباً لا يمكن أن يُعاد بناؤها. ولا نجاة إلا من الرب الذي يجب أن يفتقد شعبه ليتحقَّق وعده: «ومنكَ تُبنَى الخِرب القديمة. تقيم أساسات دورٍ فدور.. ويبنون الخِرب القديمة، يقيمون الموحشات الأُول، ويجدِّدون المدن الخربة» (إش 58: 12 و61: 4).

(ب) وضع العدو آياته مكان آيات الله: «قد زمجر مقاوموك في وسط معهدك. جعلوا آياتهم آيات» (آية 4). رفع أعداء الله أصواتهم كالأسود المزمجرة في معهد الله الذي هو هيكله، حيث يأتي شعبه ليسمعوا كلمته ويتعلَّموها. وكان معهد الله أولاً يُسمَّى «خيمة الاجتماع» كما قال الله لموسى: «عند باب خيمة الاجتماع.. حيث أجتمع بكم لأكلِّمك هناك، وأجتمع هناك ببني إسرائيل فيُقدَّس بمجدي» (خر 29: 42، 43). ولكن الأعداء رفعوا شعارات ديانتهم فوق التعاليم الإلهية، وجعلوا أصنامهم وأوثانهم آيات وآلهة في وسط الهيكل، فأبدلوا الحقَّ الإلهي بالباطل الوثني.

(ج) حطم العدو زينة الهيكل: «بيَان كأنه رافعُ فؤوسٍ على الأشجار المشتبكة. والآن منقوشاته معاً بالفؤوس والمعاول يكسرون» (آيتا 5، 6). حطم العدو زينة الهيكل، فقد قيل عن هيكل سليمان: «و(خشب) أرز البيت من داخل كان منقوراً على شكل قِثّاء وبراعم زهور. الجميع (خشب) أرز. لم يكن يُرى حجر.. وجميع حيطان البيت في مستديرها رسمها نقشاً بنَقْر كروبيم ونخيل وبراعم زهور من داخل ومن خارج» (1مل 6: 18، 29). فجاء العدو بفؤوسه ومعاوله الغاشمة وحطم هذا كله.

(د) أحرقوا الهيكل: «أطلقوا النار في مقدسك. دنَّسوا للأرض مسكن اسمك. قالوا في قلوبهم: لنُفنينَّهم معاً. أحرقوا كل معاهد الله في الأرض» (آيتا 7، 8). أحرق نبوخذنصَّر الهيكل، وهو المكان الذي اختاره الله ليحلَّ اسمه فيه (تث 12: 11)، والذي قال فيه داود: «يا ربُّ، أحببتُ محلَّ بيتك وموضع مسكن مجدك» (مز 26: 8). وقد «أحرق (العدو) بيت الملك وكل بيوت أورشليم. وكل بيوت العظماء أحرقها بالنار، وجميع أسوار أورشليم مستديراً هدمها» (2مل 25: 9، 10).

(هـ) لم يعُد هناك واعظ: «آياتنا لا نرى. لا نبيَّ بعْد، ولا بيننا من يعرف حتى متى» (آية 9). لم يعُد هناك شيء يذكِّر بني إسرائيل بعبادة الرب، فلا عبادة، ولا أعياد، ولا حفظ سبوت، ولا ملك ولا كاهن. وكان الرب قد قال لموسى: «سبوتي تحفظونها، لأنه علامة بيني وبينكم في أجيالكم، لتعلموا أني أنا الرب الذي يقدِّسكم» (خر 31: 13). وتحقَّق المرنم من قول النبي حزقيال: «ستأتي مصيبة على مصيبة.. فيطلبون رؤيا من النبي، والشريعة تُباد عن الكاهن والمشورة عن الشيوخ» (حز 7: 26).

4 - المرنم يطلب إيضاحاً واستجابة: «حتى متى يا الله يعيِّر المقاوم ويهين العدو اسمك إلى الغاية؟ لماذا تردُّ يدك ويمينَك؟ أَخرِجها من وسط حضنك. أفنِ» (آيتا 10، 11). في هاتين الآيتين يتساءل المرنم إن كانت هذه الحالة البائسة ستستمر إلى الأبد. فإن كانت ستنتهي، فمتى يكون هذا؟.. وهو يطالب الرب أن ينقذ شعبه ويفني الأعداء الذين عيَّروا اسم الله بكلامهم وأهانوه بأفعالهم، كما قال ملك أشور: «كما أصابت يدي ممالك الأوثان وأصنامها المنحوتة، هي أكثر من التي لأورشليم وللسامرة. أفليس كما صنعتُ بالسامرة وبأوثانها أصنع بأورشليم وأصنامها؟» (إش 10: 10، 11) وبهذه الكلمات ساوى بين الأوثان والرب الإله! وبدا للمرنم أن الرب ممتنعٌ عن إنقاذ شعبه، كما قال صاحب المراثي: «رَدَّ إلى الوراء يمينه أمام العدو، واشتعل في يعقوب مثل

نار ملتهبة تأكل ما حواليها» (مرا 2: 3). فدعا المرنم الرب أن يُخرج يمينه من وسط حضنه ويمدّها بقوته الفاعلة كما سبق أن مدَّها، فابتلع البحر المصريين وأفناهم (خر 15: 12).

ثانياً ـ ذكريات الرحمة الماضية
آيات 12-17)

في ذكر مراحم الله الماضية رأى المرنم ثلاثة أمور عظيمة في الله:

1 - الرب إلـه الخـلاص: «والله ملكي منذ القِدم. فاعل الخلاص في وسط الأرض. أنت شققت البحر بقوتك. كسرتَ رؤوس التنانين على المياه» (آيتا 12، 13). يعلن المرنم أن الله ملكه الآن كما كان، وكما سيكون. وهو الديّان العادل لكل الأرض، الذي يصنع عدلاً وخلاصاً، لأنه يقول: «في وقتٍ مقبولٍ سمعتُك، وفي يوم خلاصٍ أعنتك» (2كو 6: 2). وبالرغم من المصاعب المؤلمة التي مرَّ بها هو وشعبه، إلا أنه يدرك أن «الرب يملك إلى الدهر والأبد» (خر 15: 18)، فيقول له: «أنت هو ملكي يا الله، فَأُمر بخلاص يعقوب» (مز 44: 4). لقد خلَّص شعبه بالخروج من مصر أمام كل الأمم والبلاد، وأنقذهم من سوء العذاب (مز 77: 14)، كما كان فاعل الخلاص أيام إيليا وأنزل النار لتحرق الذبيحة، فهتف الشعب كله: «الرب هو الله» (1مل 18: 39)، وفعل الخلاص أيام دانيال عندما أنقذ الفتية الثلاثة من أتون النار (دا 3) وعندما أنقذ دانيال من جب الأسود (دا 6).

لقد شقَّ إله الخلاص البحر الأحمر بقوَّته السماوية، وعبَّر شعبه المستضعَف في الأرض وأغرق فرعون وجنوده، فانكسرت رؤوسهم وطفت جثثهم على المياه، «فخلَّص الرب في ذلك اليوم إسرائيل من يد المصريين، ونظر إسرائيلُ المصريين أمواتاً على شاطئ البحر» (خر 14: 30). ويسمِّي الوحي فرعون «التنين» لفرط قوته، و«لوياثان»، و«رَهَب»، و«التمساح الكبير»، فقد قال النبي إشعياء: «في ذلك اليوم يعاقب الرب بسيفه القاسي العظيم الشديد لوياثان الحية الهاربة، لوياثان الحية المتحوِّية، ويقتل التنين الذي في البحر» (إش 27: 1)، ويدعو ذراع قوة الرب قائلاً: «استيقظي. البسي قوة يا ذراع الرب. استيقظي كما في أيام القِدم، كما في الأدوار القديمة. ألستِ أنتِ القاطعة رهَب (مصر)، الطاعنة التنين؟» (إش 51: 9)، وكما قال النبي حزقيال: «هكذا قال الرب: هأنذا عليك يا فرعون ملك مصر، التمساح الكبير الرابض في وسط أنهاره، الذي قال: نهري لي، وأنا عملته بنفسي» (حز 29: 3).

2 - الرب إله العناية: «أنت رضَضْتَ رؤوس لوياثان. جعلته طعاماً للشعب، لأهل البرية. أنت فجَّرت عيناً وسيلاً. أنت يبَّست أنهاراً دائمة الجريان» (آيتا 14، 15). انكسرت رؤوس جنود فرعون وترضَّضت فصارت طعاماً لحيوانات البرية، كما قال الله لفرعون: «أتركك في البرية أنت وجميع سمك أنهارك. على وجه الحقل تسقط فلا تُجمَع ولا تُلَمُّ. بذلتُك طعاماً لوحوش البر ولطيور السماء» (حز 29: 5).

وعندما عطش الشعب فجَّر إله العناية عيون الماء من صخور شبه جزيرة سيناء فشرب الشعب أربعين سنة (خر 17: 6 وعد 20: 8) «ولم يعطشوا في القفار التي سيَّرهم فيها. أجرى لهم من الصخر ماءً، وشقَّ الصخر ففاضت المياه» (إش 48: 21). لذلك يقول المرنم: «أخرج مجاري من صخرة، وأجرى مياهاً كالأنهار» (مز 78: 15).

وعندما احتاج الشعب أن يعبر المياه ليصل إلى الأرض التي وعده الرب بها، جفَّف الرب نهر الأردن الدائم الجريان «فعند إتيان حاملي التابوت إلى الأردن، وانغماس أرجل الكهنة حاملي التابوت في ضفَّة المياه، والأردن ممتلئ إلى جميع شطوطه.. وقفت المياه المنحدرة من فوق وقامت ندّاً واحداً بعيداً جداً عن «أدام» المدينة.. انقطعت تماماً، وعبر الشعب مقابل أريحا» (يش 3: 15-17). «لأن الرب إلهكم قد يبَّس مياه الأردن من أمامكم حتى عبرتم، كما فعل الرب إلهكم ببحر سوف الذي يبَّسه من أمامنا حين عبرنا، لكي تعلم جميع شعوب الأرض يد الرب أنها قوية، لكي تخافوا الرب إلهكم كل الأيام» (يش 4: 23، 24).

3 - الرب إلـه الخَلـق: «لك النهار ولك أيضاً الليل. أنت هيَّأت النور والشمس. أنت نصبتَ كل تخوم الأرض. الصيف والشتاء أنت خلقتهما» (آيتا 16، 17). خلق الرب النهار والليل بسبب دوران الأرض حول نفسها، عندما قال: «ليكن نور» فكان نور، ودعا الله النور نهاراً والظلمة دعاها ليلاً.. وقال الله: «لتكن أنوار في جَلَد السماء لتفصل بين النهار والليل، وتكون لآيات وأوقات وأيام وسنين، وتكون أنواراً في جلَد السماء لتنير على الأرض». وكان كذلك. فعمل الله النورين العظيمين: النور الأكبر لحكم النهار، والنور الأصغر لحكم الليل (تك 1: 5 و14-16). وخلق الله تخوم الأرض ورسم حدودها يوم فصل بين الأرض والماء، «وقال: لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد، ولتظهر اليابسة» (تك 1: 9). وخلق الله الفصول ومنها الصيف والشتاء بسبب دوران الأرض حول الشمس.

ثالثاً ـ طلب النجاة

(آيات 18-23)

1 - طلب النجاة لأن العدو عيَّر الرب: «اذكر هذا: أن العدو قد عيّر الرب، وشعباً جاهلاً قد أهان اسمك» (آية 18). عندما يهاجم العدوُّ شعبَ الرب وينتصر يظنّ أن أصنامه أعظم من الرب، ويعتبر هجومه الظافر تعييراً لإله الشعب المغلوب على أمره. والعدو في هذه الحالة جاهل بعظمة الرب وبكريم رعايته لشعبه، فقد قال الجاهل في قلبه: «ليس إله!» (مز 14: 1)، و«كثيرون يقولون لنفسي: ليس له خلاص بإلهه» (مز 3: 2).

2 - طلب النجاة لأنه بريء وضعيف: «لا تسلِّم للوحش نفس يمامتك. قطيع بائسيك لا تنْسَ إلى الأبد» (آية 19). يشبِّه المرنم شعب الرب باليمامة، لأنها لا تستطيع أن تدافع عن نفسها، وهي لا تؤذي أحداً، وتغني دوماً بصوت حزين، بينما العدو وحشٌ كاسر. ويشبِّه شعبه أيضاً بأنه قطيع من البائسين، لا يقدرون أن يرشدوا أنفسهم، ولا أن يدفعوا الأذى عنها، فيطلب من الراعي الصالح أن يذكرهم في ضيقهم.

3 - طلب النجاة لأن للرب عهداً مع شعبه: «انظر إلى العهد، لأن مُظلِمات الأرض امتلأت من مساكن الظلم. لا يرجعنَّ المنسحق خازياً. الفقير والبائس ليسبِّحا اسمك» (آيتا 20، 21). دخل الرب في عهد مع شعبه ليحفظهم وليكونوا له، فقال لنوح ونسله: «وها أنا مقيمٌ ميثاقي معكم ومع نسلكم من بعدكم» (تك 9: 9). و«قطع الرب مع إبراهيم ميثاقاً» (تك 15: 18). وعندما كتب موسى جميع أقوال الرب أرسل فتيان بني إسرائيل فذبحوا ذبائح، أخذ موسى نصف دمها ووضعه في الطسوس، ورشَّ النصف الآخر على المذبح، وأخذ كتاب العهد وقرأ في مسامع الشعب، وأخذ الدم ورشَّ على الشعب، وقال: «هوذا دم العهد الذي قطعه الرب معكم على جميع هذه الأقوال» (خر 24: 4-8). وقطع الرب عهداً مع داود، وقال: «قطعتُ عهداً مع مختاري. حلفتُ لداود عبدي» (مز 89: 3).

ولكن بدا للمرنم أن الله أدار وجهه بعيداً عن عهده مع شعبه، فسُبي بنو إسرائيل من أرضهم إلى «مُظلمات الأرض» في بابل، حيث العبادة الوثنية المظلمة، وهي بلاد يعشِّش فيها الظلم ويملأ كل ركن منها، فانسحقوا وخزوا وافتقروا وابتئسوا. ويذكِّر المرنم الرب بعهده مع شعبه حتى لا يرجع المنسحق بالخزي لأن صلاته لم تلقَ استجابة، بل بالحري يرتل ويسبِّح الرب الذي سمع صلاته، فيكون «الرب ملجأً للمنسحق، ملجأً في أزمنة الضيق، ويتكل عليك العارفون اسمك، لأنك لم تترك طالبيك يا رب.. تُميل أذنك لحقِّ اليتيم والمنسحق، لكي لا يعود أيضاً يرعبهم إنسان من الأرض» (مز 9: 9، 10 و10: 17، 18).

4 - طلب النجاة لأن القضية قضيةُ الرب: «قُم يا الله. أقم دعواك. اذكر تعيير الجاهل إياك اليوم كله. لا تنْسَ صوت أضدادك، ضجيج مقاوميك الصاعد دائماً» (آيتا 22، 23). هذا هو النداء الأخير في هذا المزمور لطلب النجاة.. لقد تعوَّد المرنم أن يطلب من الله الدفاع عن قضيته الشخصية أو قضية شعبه، فيقول: «اقضِ لي يا الله وخاصِم مخاصمتي مع أمة غير راحمة، ومن

إنسان غشٍّ وظلمٍ نجِّني» (مز 43: 1).. ولكنه هنا يطالب الله بالدفاع عن القضية الإلهية، فيقوم الرب ليقيم دعواه على الجاهل الذي يفتري على الخالق، سيد الأرض كلها. ويبدو للمرنم أن الله نسي تعييرات معيِّريه، وأصوات أضداده وأعدائه وضجيجهم الصـــاعد ليتحدَّى السماء من أفواه مجدِّفة لا تتوقَّف عن التجديف، وينتظر أن يسمع مرةً أخرى قول الله لملك أشـــور: «لأن هيجانـــك علـــيَّ وعجرفتك قد صعدا إلى أذنيَّ، أضع خزامتي في أنفك، وشكيمتي في شفتيك، وأردُّك في الطريق الذي جئت فيه» (إش 37: 29).

العدو جاهل بالرب وبشدة قوته، وهو مقاومٌ لا يقدر المرنم أن يواجهه لأنه كاليمامة البريئة التي لا تقدر أن تدافع عن نفســـها. والظلم كامن في كل ركن مظلم من الأرض! ولكن الرب إله العدل لا بد ينفذ مختاريه الصارخين إليه نهاراً وليلاً.

اَلْمَزْمُورُ الْخَامِسُ وَالسَّبْعُونَ

لإِمَامِ الْمُغَنِّينَ. عَلَى «لاَ تُهْلِكْ». مَزْمُورٌ لآسَافَ. تَسْبِيحَةٌ

1 نَحْمَدُكَ يَا اللهُ. نَحْمَدُكَ وَاسْمُكَ قَرِيبٌ. يُحَدِّثُونَ بِعَجَائِبِكَ. 2«لأَنِّي أُعَيِّنُ مِيعَاداً. أَنَا بِالْمُسْتَقِيمَاتِ
أَقْضِي. 3ذَابَتِ الأَرْضُ وَكُلُّ سُكَّانِهَا. أَنَا وَزَنْتُ أَعْمِدَتَهَا». سِلاَهْ.
4قُلْتُ لِلْمُفْتَخِرِينَ: «لاَ تَفْتَخِرُوا» وَلِلأَشْرَارِ: «لاَ تَرْفَعُوا قَرْناً. 5لاَ تَرْفَعُوا إِلَى الْعُلَى قَرْنَكُمْ. لاَ
تَتَكَلَّمُوا بِعُنُقٍ مُتَصَلِّبٍ». 6لأَنَّهُ لاَ مِنَ الْمَشْرِقِ وَلاَ مِنَ الْمَغْرِبِ وَلاَ مِنْ بَرِّيَّةِ الْجِبَالِ. 7وَلَكِنَّ اللهَ هُوَ الْقَاضِي.
هَذَا يَضَعُهُ وَهَذَا يَرْفَعُهُ. 8لأَنَّ فِي يَدِ الرَّبِّ كَأْساً وَخَمْرُهَا مُخْتَمِرَةٌ. مَلآنَةٌ شَرَاباً مَمْزُوجاً. وَهُوَ يَسْكُبُ مِنْهَا.
لَكِنْ عَكَرُهَا يَمَصُّهُ يَشْرَبُهُ كُلُّ أَشْرَارِ الأَرْضِ.
9أَمَّا أَنَا فَأُخْبِرُ إِلَى الدَّهْرِ. أُرَنِّمُ لإِلَهِ يَعْقُوبَ. 10وَكُلَّ قُرُونِ الأَشْرَارِ أَعْضِبُ. قُرُونُ الصِّدِّيقِ
تَنْتَصِبُ.

لأني أعيِّن ميعاداً

هذا المزمور والذي يليه ترنيمتا شكر لآساف على النجاة، بعد أن استمع الله إلى شكواه التي رفعها في مزمور 74، وكانا يُرتَّلان في مناسبات الانتصار القومي. وهما يشبهان مزموري 46، 48 اللذين رنمهما بنو قورح، فقد دان الله العدو المتكبِّر وحطمه، واختبر المرنم من جديد أن الله هو القاضي العادل الذي ينصر شعبه، وتحقَّقت نبوة إشعياء: «وتكون لكم أغنيةٌ كليلة تقديسِ عيدٍ، وفرحُ قلبٍ كالسائر بالناي ليأتي إلى جبل الرب، إلى صخر إسرائيل» (إش 30: 29).

ولا نعرف بالضبط ما هي مناسبة كتابة هذا المزمور، ولعلها هلاك 185 ألف جندي أشوري ممن كانوا يحاصرون أورشليم (2مل 19: 35).. وهو اختبار يكرره الله مع شعبه عبر العصور.

في هذا المزمور نجد:

أولاً – المرنم يحمد الرب (آية 1)

ثانياً – الرب يجيب المرنم (آيتا 2، 3)

ثالثاً – المرنم يحذِّر أعداءه (آيات 4–8)

رابعاً – المرنم يمجِّد الرب (آيتا 9، 10)

أولاً - المرنم يحمد الرب
(آية 1)

يبدأ المرنم مزموره ويختمه بحمد الله وتمجيده لأنه جاوبه على شكواه.

1 - يحمده حمداً مؤكداً: «نحمدك يا الله نحمدك» (آية 1أ). تتكرر كلمة «نحمدك» للتنبير على توحُّد القلب في شكر الله الدائم على مراحمه التي تتجدَّد كل صباح. لقد فاض قلب المرنم بالحمد لله المنقذ من المعاناة الشديدة، والذي كانت رحمته أقوى من كل ضيقة. ويتعلم كل مؤمن حقيقي أن يشكر في كل حين على كل شيء، ويفعل ما فعله السامري الأبرص الذي شفاه المسيح مع تسعة

آخرين، فرجع ليقدم شكره لشافيه. وسأل المسيح: «أليس العشرة قد طهَروا؟ فأين التسعة؟» (لوقا 17: 17) لأن كثيرين ينالون ولا يشكرون.

والمؤمن الحقيقي يشكر حتى على الظروف السيئة، لا لأنها سيئة، ولكن لأن الله سيُخرج منها شيئاً حسناً، فمن الآكل يخرج أكل، ومن الجافي تخرج حلاوة (قض 14: 14)، ونقول دائماً إن للصدِّيق خيراً (إش 3: 10).

2 - يحمده على قُربه: «واسمك قريب» (آية 1ب). اسم الرب هو شخصه وما أعلن به ذاته للبشر، وهو دائماً قريب من طالبيه، ولو أن قُربه يتَّضح لهم أكثر في زمان الضيق عندما يبرهن لهم حضوره الحي الفعّال وينقذهم. قال موسى لبني إسرائيل: «أيُّ شعبٍ هو عظيم، له آلهة قريبة منه كالرب إلهنا في كل أدعيتنا إليه؟» (تث 4: 7).. «قريبٌ هو الرب من المنكسري القلوب، ويخلِّص المنسحقي الروح.. الرب قريب لكل الذين يدعونه، الذين يدعونه بالحق» (مز 34: 18، 145: 18)، «ليستجب لك الرب في يوم الضيق. ليرفعك اسم إله يعقوب» (مز 20: 1).. لذلك قال الرسول بولس وهو مسجون في روما للمتألمين من الاضطهاد في فيلبي: «افرحوا في الرب كل حين، وأقول أيضاً افرحوا.. الرب قريب» (في 4: 4، 5)، فهو قريب من المؤمنين أكثر مما يتصوَّرون، كما أن مجيئه ثانيةً قريب.

3 - يحمده على عجائبه: «يحدِّثون بعجائبك» (آية 1ج). يتحدَّث المرنم والمحيطون به عن عجائب الإنقاذ الإلهي، ولسان حاله: «أحمد الرب بكل قلبي. أحدِّث بجميع عجائبك.. اللهمَّ، قد علَّمتَني منذ صِباي، وإلى الآن أُخبر بعجائبك» (مز 9: 1 و71: 17). وهم مندهشون من المعجزات المتكررة التي زادت نضوجهم الروحي، وكأنهم يقولون مع الرسول بولس: «فإني أحسب أن آلام الزمان الحاضر لا تُقاس بالمجد العتيد أن يُستعلَن فينا» (رو 8: 18).

ثانياً - الرب يجيب المرنم
(آيتا 2، 3)

لا بد أن الله يعاقب الشرير، ويحافظ على المبادئ الأخلاقية في العالم الذي خلقه، حتى لو ظهر لعيوننا البشرية في أحيان كثيرة أن الفوضى تعمُّه، لكنه سبحانه بنى الكون مثل بيت متَّزن الأعمدة تخبر السماوات بعدله، «لأن الله هو الديّان» (مز 50: 6).. وتقول هاتان الآيتان:

1- للتدخُّل الإلهي موعد: «لأني أعيّن ميعاداً» (آية 2أ). يبدو للمتضايق أن الله نسي، لكن «لكل شيء زمان، ولكل أمر تحت السماوات وقت» (جا 3: 1). قال المسكين الذي أعيا وسكب شكواه قدام الله: «أنت تقوم وترحم صهيون، لأنه وقت الرأفة، لأنه جاء الميعاد» (مز 102: 13). فما أعظم الحكمة في التوقيت الإلهي، فالهدية التي نتلقاها وقت الحاجة إليها هي أفضل هدية. «فإن كنتم، وأنتم أشرار، تعرفون أن تعطوا أولادكم عطايا جيدة، فكم بالحري أبوكم الذي في السماوات!» (مت 7: 11). «لأن الرؤيا بعدُ إلى الميعاد، وفي النهاية تتكلم ولا تكذب. إن توانت فانتظرها، لأنها ستأتي إتياناً ولا تتأخَّر» (حب 2: 3)، فهناك ميعاد معيَّن لكل عمل يُعمل. فلننتظر ميعاد الرب ونحن نقول: «انتظاراً انتظرتُ الرب» (مز 40: 1).

عندما قطع الرب ميثاقاً مع خليله إبراهيم ووعده أن يمنحه أرض الميعاد، لم يعطها له فوراً «لأن ذنب الأموريين ليس إلى الآن كاملاً» (تك 15: 16)، ومنح الرب الأموريين أربعمئة سنة ليتوبوا. وكان يجب أن يفهموا التحذير الحكيم: «أم تستهين بغنى لطفه وإمهاله وطول أناته، غير عالمٍ أن لطف الله إنما يقتادك إلى التوبة؟» (رو 2: 4).

2 – في التدخُّل الإلهي تحقيق للعدالة: «أنا بالمستقيمات أقضي» (آية 2ب). يؤكد الله أنه وحده سيُحقُّ الحق، ويوقع العقاب بالعدو إن لم يتُب، وسيُجري الحق كالمياه، والبر كنهر دائم (عا 5: 24)، ولن يكون هناك ظلم. «لأنه أقام يوماً هو فيه مزمعٌ أن يدين المسكونة بالعدل» (أع 17: 31).

3 – التدخُّل الإلهي يُخضع الجميع: «ذابت الأرض وكل سكانها. أنا وزنتُ أعمدتها» (آية 3). قد تبدو العدالة في هذا العالم متعثِّرة، وقد يتزعزع إيمان المؤمن بسبب هذا، فيقول: «حقاً قد زكَّيتُ قلبي باطلاً وغسلت بالنقاوة يديَّ» (مز 73: 13). ولكن الله أقام عالمه على أسُس أخلاقية كالأعمدة الثابتة المتَّزنة. فعندما تهتز العدالة الأرضية ويسود الظلم يُعيد الله للعدالة ثباتها ويعاقب الظلم والظالمين، فيقول المؤمن: «انتبهتُ إلى آخرتهم. حقاً في مزالق جعلتهم. أسقطتهم إلى البوار» (مز 73: 17، 18).. لقد وزن الله كل شيء ووضعه في مكانه الصحيح، ولم يخلق الكون وتركه للصُّدف، ولا أهمل شعبه لحظة! وهذا ما نراه في كل التاريخ.. لقد ذابت الأرض وكل سكانها وهي تشهد حادثة الخروج من مصر، ثم ذابت مرة أخرى وهي تشاهد عودة الشعب من سبي بابل ليعيدوا بناء الهيكل. وستذوب الأرض كلها عند مجيء المسيح ثانية ليدين العالمين. «لا يتباطأ الرب عن وعده كما يحسب قوم التباطؤ، لكنه يتأنى علينا وهو لا يشاء أن يهلك أناسٌ، بل أن يُقبِل الجميع إلى التوبة. ولكن سيأتي كلصٍّ في الليل يوم الرب، الذي فيه تزول السماوات بضجيج، وتنحل العناصر محترقة، وتحترق الأرض والمصنوعات التي فيها. فبما أن هذه كلها تنحل، أيّ أناسٍ يجب أن تكونوا أنتم في سيرة مقدسة وتقوى، منتظرين وطالبين سرعة مجيء يوم الرب، الذي به تنحل السماوات ملتهبة، والعناصر محترقة تذوب. ولكننا بحسب وعده ننتظر سماوات جديدة وأرضاً جديدة يسكن فيها البر» (2بط 3: 9–13).

ثالثاً ـ المرنم يحذِّر أعداءه
(آيات 4-8)

كانت شريعة العهد القديم تقول إن «عيناً بعين، وسناً بسن، ويداً بيد ورِجلاً برِجل» (خر 21: 24)، فكان يحقُّ للمرنم أن يطلب تدمير أعدائه، ولكنه بدلاً من هذا قدَّم لهم التحذيرات والنصائح، ونبَّههم إلى قضاء الله العادل ليتوبوا:

1 - حذَّر هم من الكبرياء: «قلتُ للمفتخرين: لا تفتخروا، وللأشرار: لا ترفعوا قرناً. لا ترفعوا إلى العُلى قرنكم» (آيتا 4، 5أ). المفتخرون هم الذين يعتزّون بأنفسهم لا بالرب، فيُقال لهم: «لماذا تفتخر بالشر أيها الجبار؟» (مز 52: 1). لقد رفع الشرير قرنه إلى العُلى، إلى مكان سُكنى الله. والقرن يرمز إلى القوة، فبه ينطح الثور. وكان القرن لقباً للملوك لأنهم ذوو سلطة وقوة (دا 7: 7 ومز 132: 17). ويحذر المرنم أعداءه من الافتخار، فطوبى للمساكين بالروح (مت 5: 3) لأنهم يدركون أن كل ما عندهم من سلطان هو عطية الله، فيقول كلٌّ منهم: «بالرب تفتخر نفسي» (مز 34: 2).

تضايق الوزير الفارسي هامان لأن مُردخاي بوّاب القصر رفض أن يسجد له، طاعةً للوصية: «للرب إلهك تسجد، وإياه وحده تعبد» (مت 4: 10)، وفي كبريائه قرر أن يقتل مردخاي مصلوباً، فصُلب هو على الخشبة التي جهزها لمردخاي (أس 7: 9، 10).

وفي كبرياء قلبه نظر نبوخذنصَّر إلى عاصمته العظيمة وقال: «أليست هذه هي بابل العظيمة التي بنيتها لبيت المُلك بقوة اقتداري ولجلال مجدي؟ والكلمة بعد بفم الملك وقع صوتٌ من السماء قائلاً: لك يقولون يا نبوخذنصَّر الملك: إن المُلك قد زال عنك، ويطردونك من بين الناس، وتكون سُكناك مع حيوان البَر، ويطعمونك العشب كالثيران، فتمضي عليك سبعة أزمنة حتى تعلم أن العلي متسلط في مملكة الناس، وأنه يعطيها من يشاء» (دا 4: 28–32). وهكذا كان، حتى أدرك أن العلي صاحب السلطان في مملكة الناس، فرجع إليه عقله وأعادوه لعرشه.

«كان هيرودس ساخطاً على الصوريين والصيداويين فحضروا إليه بنفس واحدة واستعطفوا بلاستس الناظر على مضجع الملك، ثم صاروا يلتمسون المصالحة لأن كورتهم تقتات من كورة الملك. ففي يوم معيَّن لبس هيرودس الحلة الملوكية وجلس على كرسي المُلك وجعل يخاطبهم. فصرخ الشعب: هذا صوت إله لا صوت إنسان. ففي الحال ضربة ملاك الرب لأنه لم يعطِ المجد

لله. فصار يأكله الدود ومات» (أع 12: 20–23). وهكذا أهلك هيرودس نفسه بكبريائه، لأنه قبل أن يصيبه المرض الجسدي أصابه داء الكبرياء.

2 - حذَّرهم من العناد: «لا تتكلموا بعُنق متصلِّب» (آية 5ب). قالت حنَّة أم النبي صموئيل: «لا تُكثِّروا الكلام العالي المستعلي، ولتبرح وقاحة من أفواهكم، لأن الرب إلهٌ عليم، وبه توزن الأعمال» (1صم 2: 3). والعنق المتصلب هو المتكبر. وعلى الإنسان أن يتعلم التواضع، فكم ضمَّ باطن الأرض من عظماء وأصحاب مراكز أثرياء، وستظل تضم. فلنتخلَّ عن العنق المتصلب، ولننحنِ أمام الله بتواضع، كما تواضعت العذراء القديسة مريم وقالت: «تعظِّم نفسي الرب.. لأنه نظر إلى اتِّضاع أمَته، فهوذا منذ الآن جميع الأجيال تطوِّبني، لأن القدير صنع بي عظائم.. صنع قوة بذراعه. شتَّت المستكبرين بفكر قلوبهم. أنزل الأعزاء عن الكراسي ورفع المتَّضعين» (لو 1: 46–52).

3 – ذكَّرهم بالسلطان الإلهي: «لأنه لا من المشرق ولا من المغرب ولا من برية الجبال. ولكن الله هو القاضي. هذا يضعه وهذا يرفعه» (آيتا6، 7). هاجم الأعداء شعب الرب من كل جهة: من الشمال والجنوب وشبه الجزيرة. و«لكن» هناك أمل للمؤمن ورعب للظالم، لأن الله هو القاضي، كما قال إشعياء: «فإن الرب قاضينا. الرب شارعنا (المشرِّع لنا). الرب ملكنا، هو يخلِّصنا» (إش 33: 22). «الرب يُميت ويحيي. يُهبِط إلى الهاوية ويُصعِد. الرب يُفقِر ويُغني. يضع ويرفع» (1صم 2: 6، 7). «الرب يرفع الودعاء، ويضع الأشرار إلى الأرض» (مز 147: 6).

4 – حذَّرهم من العقاب الإلهي: «لأن في يد الرب كأساً وخمرها مختمرة. ملآنة شراباً ممزوجاً وهو يسكب منها. ولكن عكرها يمَصُّه، يشربه كل أشرار الأرض» (آية 8). يشير الكأس هنا إلى العقاب الإلهي، كما قال المرنم عنه: «أسقيتَ (يا رب) شعبك عُسراً. سقيتنا خمر الترنُّح» (مز 60: 3). وقد أمر الرب النبي إرميا: «خُذ كأس خمر هذا السَّخط من يدي، واسْقِ جميع الشعوب الذين أُرسلك أنا إليهم إياها، فيشربوا ويترنَّحوا ويتجنَّنوا» (إر 25: 15، 16). وقال النبي إشعياء لبلاده: «قومي يا أورشليم التي شربتِ من يد الرب كأس غضبه. ثُفل كأس الترنُّح شربتِ، مصصتِ» (إش 51: 17). وكأس الخمر المختمرة في يد الله يعني أن العقاب الإلهي على الشرير عقاب شديد. والكأس «ملآنة شراباً ممزوجاً» بمعنى أن عقوباتها متنوعة وكثيرة، «يسكب» الله منها، لأنها لا تزال تمتلئ من غضبه ولا تفرغ، يشربها الأشرار حتى العكر المترسِّب في قاعها، فلا تبقى فيها قطرة.

وقد يبدو هذا الكلام قاسياً، لكن الحقيقة هي أن الذي يشرب كأس غضب الله حتى ثمالتها هو الذي رفض رحمة الله، مع أن الله طالما دعاه للتوبة فرفض، وبرفضه يذخر لنفسه غضباً في يوم الغضب ويوم استعلان دينونة الله العادلة (رو 2: 5).

رابعاً – المرنم يمجِّد الرب
(آيتا 9، 10)

بعد أن حذَّر المرنم الأشرار من سوء مصيرهم، أوضح موقفه الذي يجاهر به علناً. كانوا يعلنون الحرب، أما هو فيطلب السلام. كانت ألسنتهم تلعن، أما لسانه فيبارك.

1 – يمجِّد المرنم الرب بالإعلان عن عمله: «أما أنا فأُخبر إلى الدهر» (آية 9أ). عمل الله مع المؤمن عملاً لا يستحقه، ولم يكن يتوقعه، لأنه أكثر جداً مما طلب أو افتكر، وفي انبهار يخبر بكم صنع الرب به ورحمه (مر 5: 19). ويقول الوحي للمؤمنين: «وأما أنتم فجنسٌ مختار وكهنوت ملوكي، أمة مقدسة، شعب اقتناء، لكي تخبروا بفضائل الذي دعاكم من الظلمة إلى نوره العجيب. الذين قبلاً لم تكونوا شعباً، وأما الآن فأنتم شعب الله. الذين كنتم غير مرحومين، وأما الآن فمرحومون» (1بط 2: 9، 10). فيقولون: «متكلِّمٌ أنا بإنشائي للملك. لساني قلم كاتب ماهر» (مز 45: 1).

2 - يمجِّده بالفرح بما عمله: «أرنِّم لإله يعقوب» (آية 9ب). لم يكن تاريخ يعقوب تاريخ من يستحق الرحمة الإلهية، لا هو ولا بنوه. فلما أنقذهم الله عبَّر المرنم عن تمجيده لله بالترنيم.. لم يكن يعقوب يستحق الرحمة، فقد خدع أخاه وأباه وخاله، وبدأت علاقته بالله أنانية لمصلحته، فنذر: «إن كان الله معي وحفظني في هذا الطريق الذي أنا سائر فيه، وأعطاني خبزاً لآكل وثياباً لألبس ورجعتُ بسلام إلى بيت أبي، يكون الرب لي إلهاً. وهذا الحجر الذي أقمتُه عموداً يكون بيت الله، وكل ما تعطيني فإني أُعشِّره لك» (تك 28: 20–22). وحقق الله مطالب يعقوب، ولكنه نسي نذره، فعاتبه الله على عدم وفائه بالعهد، وقال له: «قُم اصعد إلى بيت إيل، وأَقِم هناك. واصنع هناك مذبحاً لله الذي ظهر لك حين هربت من وجه عيسو أخيك» (تك 35: 1). وقد شعر يعقوب بعد ذلك أنه لا يستحق أفضال الله عليه، فقال لابنه يوسف عن حفيديه منسى وأفرايم: «الله الذي سار أمامه أبواي إبراهيم وإسحاق، الله الذي رعاني منذ وجودي إلى هذا اليوم، الملاك الذي خلَّصني من كل شر يبارك الغلامين» (تك 48: 15، 16). ويسبح المرنم إله يعقوب لأنه رحم يعقوب، كما يفتح باب رحمته لكل من يطلبها، لأنه «يريد أن جميع الناس يخلصون، وإلى معرفة الحق يُقبِلون» (1تي 2: 4).

3 - يمجِّده بإعلان نصره: «وكل قرون الأشرار أَعْضِب. قرون الصدِّيق تنتصب» (آية 10). يعلن المرنم أن الله سيهزم الأمم وينصف شعبه، فيعضب المرنم (يقطع) كل قرون الشرير وكل مظاهر سطوته، وتنتصب قرون الصدّيق، لأن الله يرد الحق إلى نِصابه وينقذ أولاده من الخطر. «قومي ودوسي يا بنت صهيون، لأني أجعل قرنك حديداً.. فتسحقين شعوباً كثيرين» (مي 4: 13). «مخاصمو الرب ينكسرون. من السماء يُرعِد عليهم. الرب يدين أقاصي الأرض، ويعطي عزّاً لمَلِكه، ويرفع قرن مسيحه» (1صم 2: 10). حقاً «من يرفع نفسه يتَّضع، ومن يضع نفسه يرتفع» (مت 23: 12).

ليكن هذا المزمور مصدر تشجيع حقيقي لنا. «إنما لله انتظري يا نفسي لأن من قِبَله رجائي. إنما هو صخرتي وخلاصي، ملجإي فلا أتزعزع» (مز 62: 5، 6).